قـــــواعد قرآنيـــــــــة

مفاهيم مقدمات السور الطوال من الظلال

د هشام صقر

قواعد قرآنية

المقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه وبعد،
فإن القرآن الكريم هو كلام الله، ومنهج الحياة، لا يضيع من تمسك به من بعد فهمه والعمل به، وخير الفهم هو الرجوع إلى التفاسير المختلفة، وخاصة التي تربط فهم القرآن بالواقع، والحياة المعاصرة، ومن هذه التفاسير التي تبين الواجبات الآنية في واقعنا المعاصر، وما يجب على المسلم فهمه وعمله لنصرة هذا الدين، تفسير في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب، والله حسيبه.
وقد كتب سيد قطب رحمه الله مقدمات لكل سورة من السور الطوال، ووضع في هذه المقدمات وصفا عاما لكل سورة، ومحاورها الرئيسية، وبعض القضايا التطبيقية والفكرية المعالجة لواقعنا المعاصر، فكانت هذه المقدمات ثروة علمية وفكرية لمن شاء القرآن فهما وتطبيقا.
وقد قمت بتدارس هذه المقدمات مع بعض الأحباب، ومناقشتها بالتفصيل فكانت فوائد جمة شعرنا بها جميها، وقد قمت بتلخيص كل مقدمة، مع بيان أهم المفاهيم الواردة فيها، للفائدة الشخصية، ولإثراء المناقشات مع الغير.

وهذا الكتاب هو جمع لملخص هذه المقدمات، وبيان للمفاهيم الواردة فيها، دون تدخل مني إلا نادرا، حتى يمكن الاطلاع بيسر ودون إطالة على هذه المقدمات ومفاهيمها، وأرجو ممن يرى فيها فائدة ان يناقشها مع غيره بتركيز.
وهذه المقدمات لا تغني عن قراءة المقدمات الأصلية عند توفر الوقت، كما لا تغني عن قراءة التفسير التفصيلي للآيات في الظلال، والحياة مع القرآن العظيم، والذكر الحكيم.
أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وان يغفر لي تقصيري وزلاتي، وأن يرزقني وأهلي وذريتي وعباده الصالحين وعباده المجاهدين الفردوس الأعلى من الجنة، اللهم آمين.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،
وصلى الله على محمد وآله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.
هشام صقر \ ماليزيا \ 2020.

مقدمة سورة البقرة

هذه السورة من أوائل ما نزل من السور بعد الهجرة، وهي أطول سور القرآن على الإطلاق، والمرجح أن آياتها لم تنزل متوالية كلها قبل نزول آيات من سور أخرى، والمعول عليه في ترتيب السور من حيث النزول هو سبق نزول أوائلها لا جميعها، فأما **تجميع آيات كل سورة في السورة، وترتيت هذه الآيات، فهو توقيفي موحى به.**
ويلحظ من يعيش في ظلال القرآن **أن لكل سورة من سوره شخصية مميزة،** شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة.

هذه السورة تضم عدة موضوعات، ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطا شديدا، فهي <u>من ناحية</u> تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة، واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولها صلى الله عليه وسلم وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها، وسائر ما يتعلق بهذا الموقف، بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى، **وهي <u>من الناحية الأخرى</u> تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض،** بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد الله بخصوصها، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم عليه السلام صاحب الحنيفية الأولى، **وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التي سببت تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم،** وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيه الرئيسيين.

لقد تمت **هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة** بعد تمهيد ثابت وإعداد محكم، تمت تحت تأثير ظروف حتمت هذه الهجرة، وجعلتها إجراء ضروريا لسير هذه الدعوة في الخط المرسوم الذي قدره الله لها بتدبيره، ومن ثم كان بحث الرسول صلى الله عليه وسلم عن **قاعدة أخرى غير مكة، قاعدة**

تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية، ويتاح لها فيها أن تخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة وبحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة، وهذا والله أعلم كان هو السبب الأول والأهم للهجرة.
ولقد سبق الاتجاه إلى يثرب، لتكون قاعدة للدعوة الجديدة، عدة اتجاهات، **سبقها الاتجاه إلى الحبشة**، حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل، والقول بأنهم هاجروا إليها لمجرد النجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قوية، فلو كان الأمر كذلك لهاجر إذن أقل الناس جاها وقوة ومنعة من المسلمين، غير أن الأمر كان على الضد من هذا، وربما كان وراء هذه الهجرة أسباب أخرى كإثارة هزة في أوساط البيوت الكبيرة في قريش، وأبناؤها الكرام المكرمون يهاجرون بعقيدتهم، فرارا من الجاهلية، ولكن مثل هذه الأسباب لا ينفي احتمال **أن تكون الهجرة إلى الحبشة أحد الاتجاهات المتكررة في البحث عن قاعدة حرة، أو آمنة على الأقل للدعوة الجديدة**، وبخاصة حين نضيف إلى هذا الاستنتاج ما ورد عن إسلام نجاشي الحبشة.

كذلك يبدو اتجاه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى **الطائف** محاولة أخرى لإيجاد قاعدة حرة أو آمنة على الأقل للدعوة،، وهي محاولة لم تكلل بالنجاح (دعاء الطائف المؤثر).
بعد ذلك فتح الله على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى الدعوة من حيث لا يحتسب، فكانت **بيعة العقبة الأولى، ثم بيعة العقبة الثانية**، وهما ذواتا صلة قوية بالموضوع الذي نعالجه في مقدمة هذه السورة، وبالملابسات التي وجدت حول الدعوة في المدينة.

وقد أخذ الأنصار الأمر بقوة، ومن ثم فشا الإسلام في المدينة، حتى لم يبق فيها بيت لم يدخله الإسلام، وأخذ المسلمون في مكة يهاجرون إلى المدينة تباعا، تاركين وراءهم كل شيء، ناجين بعقيدتهم وحدها، حيث لقوا من إخوانهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم، من الإيثار والإخاء ما لم تعرف له الإنسانية نظيرا قط، ثم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق، هاجر إلى القاعدة الحرة القوية الآمنة التي بحث عنها من قبل طويلا، وقامت الدولة الإسلامية في هذه القاعدة منذ اليوم الأول لهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

من أولئك السابقين من المهاجرين والأنصار تكونت طبقة ممتازة من المسلمين نوه القرآن بها في مواضع كثيرة، **وهنا نجد السورة تفتتح بتقرير مقومات الإيمان،** وهي تمثل صفة المؤمنين الصادقين إطلاقا، ولكنها أولا تصف ذلك الفريق من المسلمين الذي كان قائما بالمدينة حينذاك (1-5)، ثم نجد بعدها مباشرة في السياق وصفا للكفار (6-7)، كذلك كانت هناك طائفة المنافقين، فقد أصبح الإسلام قوة يحسب حسابها كل أحد، ويضطر لمصانعتها كثيرا أو قليلا، وبخاصة بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين فيها انتصارا عظيما.
وسنجد في أول السورة **وصفا مطولا لهؤلاء المنافقين**، ندرك من بعض فقراته أن المعني بهم في الغالب هم أولئك الكبراء الذين أرغموا على التظاهر بالإسلام، ولم ينسوا بعد ترفعهم على جماهير الناس، وتسمية هذه الجماهير بالسفهاء على طريقة العلية المتكبرين (8-20).
وكان لليهود في يثرب مركز ممتاز بسبب أنهم أهل كتاب بين الأميين من العرب، فلما أن جاء الإسلام سلبهم هذه المزايا جميعا، فلقد جاء بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه، ثم إنه أزال الفرقة التي كانوا ينفذون من خلالها للدس والكيد وجر المغانم، ووحد الصف الإسلامي الذي ضم الأوس والخزرج (وقد أصبحوا منذ اليوم يعرفون بالأنصار) إلى المهاجرين، وألف منهم جميعا ذلك المجتمع المسلم المتضام المتراص الذي لم تعهد له البشرية من قبل ولا من بعد نظيرا على الإطلاق.

ولقد **كان اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار**، وأن فيهم الرسالة والكتاب، فكانوا يتطلعون أن يكون الرسول الأخير فيهم كما توقعوا دائما، فلما أن جاء من العرب أخذتهم العزة بالإثم، وعدوا توجيه الدعوة إليهم إهانة واستطالة، ثم إنهم **حسدوا النبي صلى الله عليه وسلم حسدا شديدا**، حسدوه مرتين: **مرة لأن الله اختاره وأنزل عليه الكتاب، وحسدوه لما لقيه من نجاح سريع شامل في محيط المدينة**، على أنه كان هناك سبب آخر لحنقهم ولموقفهم من الإسلام موقف العداء والهجوم منذ الأيام الأولى: ذلك هو **شعورهم بالخطر من عزلهم عن المجتمع المدني** الذي كانوا يزاولون فيه القيادة العقلية والتجارة الرابحة والربا المضعف، هذا أو يستجيبوا للدعوة الجديدة، ويذوبوا في المجتمع الإسلامي، وهما أمران في تقديرهم أحلاهما مر، لهذا كله وقف اليهود من الدعوة الإسلامية هذا الموقف الذي تصفه سورة البقرة (40-44، 75-76، 80، 89، 91، 101، 105، 109، 111، 120).

وكانت معجزة القرآن الخالدة أن صفتهم التي دمغهم بها هي الصفة الملازمة لهم في كل أجيالهم من قبل الإسلام ومن بعده إلى يومنا هذا، ومن ثم يكثر الالتفات في السياق من خطاب قوم موسى، إلى خطاب اليهود في المدينة، إلى خطاب أجيال بين هذين الجيلين، ومن ثم تبقى كلمات القرآن حية كأنما تواجه موقف الأمة المسلمة اليوم وموقف اليهود منها.
وهذه السورة التي تضمنت هذا الوصف، وهذا التنبيه، وهذا التحذير، تضمنت كذلك **بناء الجماعة المسلمة وإعدادها لحمل أمانة العقيدة في الأرض بعد نكول بني إسرائيل عن حملها قديما**، ووقوفهم في وجهها هذه الوقفة أخيرا.
فبعد استعراض النماذج الثلاثة الأولى: المتقين، والكافرين، والمنافقين، وبعد الإشارة الضمنية لليهود الشياطين، نجد دعوة للناس جميعا إلى عبادة الله والإيمان بالكتاب المنزل على عبده، وتحدي المرتابين فيه أن يأتوا بسورة من مثله، وتهديد الكافرين بالنار، وتبشير المؤمنين بالجنة،، ثم نجد التعجيب من أمر الذين يكفرون بالله، ثم تجيء قصة استخلاف آدم في الأرض، بعد هذا يبدأ السياق **جولة واسعة طويلة مع بني إسرائيل** تتخللها دعوتهم للدخول في دين الله وما أنزله الله مصدقا لما معهم مع تذكيرهم بعثراتهم وخطاياهم والتوائهم وتلبيسهم منذ أيام موسى عليه السلام وتستغرق هذه الجولة كل هذا **الجزء الأول من السورة.**

لقد كانوا أول كافر به، وكانوا يلبسون الحق بالباطل، وكانوا يأمرون الناس بالبر - وهو الإيمان - وينسون أنفسهم، وكانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه، وكانوا يخادعون الذين آمنوا باظهار الإيمان وإذا خلا بعضهم إلى بعض حذر بعضهم بعضا من إطلاع المسلمين على ما يعلمونه من أمر النبي وصحة رسالته، وكانوا يريدون أن يردوا المسلمين كفارا، وكانوا يدعون من أجل هذا أن المهتدين هم اليهود وحدهم، كما كان النصارى يدعون هذا أيضا، وكانوا يعلنون عداءهم لجبريل عليه السلام بما أنه هو الذي حمل الوحي إلى محمد دونهم، وكانوا يكرهون كل خير للمسلمين ويتربصون بهم السوء، وكانوا ينتهزون كل فرصة للتشكيك في صحة الأوامر النبوية ومجيئها من عند الله تعالى، **ومن ثم تخاطبهم في هذا كأنهم جيل واحد متصل، وجبلة واحدة لا تتغير ولا تتبدل.**
وتنتهي هذه الحملة **بتيئيس المسلمين من الطمع في إيمانهم لهم، وهم على هذه الجبلة الملتوية القصد**، وتبين أن ورثة إبراهيم الحقيقيين هم الذين

يمضون على سنته، ويتقيدون بعهده مع ربه، وأن وراثة إبراهيم قد انتهت إذن إلى محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به، بعد ما انحرف اليهود وبدلوا ونكلوا عن حمل أمانة العقيدة.

وعند هذا الحد يبدأ سياق السورة يتجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإلى الجماعة المسلمة من حوله، حيث **يأخذ في وضع الأسس التي تقوم عليها حياة هذا الجماعة المستخلفة على دعوة الله في الأرض،** وفي تمييز هذه الجماعة بطابع خاص، وبمنهج في التصور وفي الحياة خاص.

ثم تمضي السورة في بيان المنهج الرباني لهذه الجماعة المسلمة، منهج التصور والعبادة، ومنهج السلوك والمعاملة، تبين لها أن الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتا بل أحياء، وأن الإصابة بالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات ليس شرا يراد بها، إنما هو ابتلاء، ينال الصابرون عليه صلوات الله ورحمته وهداه، وأن الشيطان يعد الناس الفقر ويأمرهم بالفحشاء، والله يعدهم مغفرة منه وفضلا، وأن الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، وتبين لهم بعض الحلال والحرام في المطاعم والمشارب، وتبين لهم حقيقة البر لا مظاهره وأشكاله، وتبين لهم أحكام القصاص في القتلى، وأحكام الوصية، وأحكام الصوم، وأحكام الجهاد، وأحكام الحج، وأحكام الزواج والطلاق مع التوسع في دستور الأسرة بصفة خاصة، وأحكام الصدقة وأحكام الربا، وأحكام الدين والتجارة.

وفي النهاية نرى ختام السورة ينعطف على افتتاحها، فيبين طبيعة التصور الإيماني، وإيمان الأمة المسلمة بالأنبياء كلهم، وبالكتب كلها وبالغيب وما وراءه، مع السمع والطاعة (285-286).

مقدمة سورة آل عمران

هذا القرآن هو كتاب هذه الدعوة، هو روحها وباعثها، وهو قوامها وكيانها، وهو حارسها وراعيها، وهو بيانها وترجمانها، وهو دستورها ومنهجها، وهو في النهاية المرجع الذي تستمد منه الدعوة - كما يستمد منه الدعاة - وسائل العمل، ومناهج الحركة، وزاد الطريق.

ولكن ستظل هنالك فجوة عميقة بيننا وبين القرآن ما لم نتمثل في حسنا، ونستحضر في تصورنا، أن هذا القرآن خوطبت به أمة حية، ذات وجود حقيقي، ووجهت به أحداث واقعية في حياة هذه الأمة، ووجهت به حياة إنسانية حقيقية في هذه الأرض، وأديرت به معركة ضخمة في داخل النفس البشرية وفي رقعة من الأرض كذلك، معركة تموج بالتطورات والانفعالات والاستجابات.

ومعجزة القرآن البارزة تكمن في أنه نزل لمواجهة واقع معين في حياة أمة معينة، في فترة من فترات التاريخ محددة، وخاض بهذه الأمة معركة كبرى حولت تاريخها وتاريخ البشرية كله معها، **ولكنه مع هذا يعايش ويواجه ويملك أن يوجه الحياة الحاضرة،** وكأنما هو يتنزل اللحظة لمواجهة الجماعة المسلمة في شؤونها الجارية، وفي صراعها الراهن مع الجاهلية من حولها، وفي معركتها كذلك في داخل النفس، وفي عالم الضمير، بنفس الحيوية، ونفس الواقعية، التي كانت له هناك يومذاك.

ولكي نحصل نحن من القرآن على قوته الفاعلة، وندرك حقيقة ما فيه من الحيوية الكامنة، **يجب أن نعيش مع تلك الجماعة الأولى، ونتمثلها في بشريتها الحقيقية، وفي حياتها الواقعية،** وفي مشكلاتها الإنسانية، ونتأمل قيادة القرآن لها قيادة مباشرة في شؤونها اليومية وفي أهدافها الكلية على السواء، ونرى كيف يأخذ القرآن بيدها خطوة خطوة، وهي تعثر وتنهض، وتحيد وتستقيم، وتضعف وتقاوم، وتتألم وتحتمل، وترقى الدرج الصاعد في بطء ومشقة، وفي صبر ومجاهدة، تتجلى فيها كل خصائص الإنسان، وكل ضعف الإنسان، وكل طاقات الإنسان.

إن القرآن حقيقة ذات كينونة مستمرة كهذا الكون ذاته، الكون كتاب الله المنظور، والقرآن كتاب الله المقروء، وكلاهما شهادة ودليل على صاحبه

المبدع، كما أن كليهما كائن ليعمل، وهذا القرآن **هو خطاب الله لهذا الإنسان،** فيمن خاطبهم الله به، خطاب لا يتغير، لأن الإنسان ذاته لم يتبدل خلقا آخر، مهما تكن الظروف والملابسات قد تبدلت من حوله، ومهما يكن هو قد تأثر وأثر في هذه الظروف والملابسات، والقرآن يخاطبه في أصل فطرته وفي أصل حقيقته التي لا تبديل فيها ولا تغيير، ويملك أن يوجه حياته اليوم وغدا لأنه معد لهذا، بما أنه خطاب الله الأخير، وبما أن طبيعته كطبيعة هذا الكون ثابتة متحركة بدون تبديل.

وهذه السورة تمثل قطاعا حيا من حياة الجماعة المسلمة في المدينة من بعد غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، إلى ما بعد غزوة أحد في السنة الثالثة، والنصوص من القوة والحيوية بحيث تستحضر صورة هذه الفترة، وصورة الحياة التي عاشتها الجماعة المسلمة، وصورة الاشتباكات والملابسات التي أحاطت بهذه الحياة، مع استبطان السرائر والضمائر، وما يدب فيها من الخواطر، وما يشتجر فيها من المشاعر، حتي لكأن قارئها يعيش هذه الأحداث.
والقرآن يتنزل ليواجه الكيد والدس، ويبطل الفرية والشبهة، ويثبت القلوب والأقدام، ويوجه الأرواح والأفكار، ويعقب على الحادث ويبرز منه العبرة، ويبني التصور ويزيل عنه الغبش، ويحذر الجماعة المسلمة من العدو الغادر والكيد الماكر، ويقود خطاها بين الأشواك والمصايد والأحابيل، قيادة الخبير بالفطرة العليم بما تكن الصدور.

ومن وراء هذا كله تبقى التوجيهات والتلقينات التي احتوتها السورة **خالصة طليقة من قيد الزمان والمكان، وقيد الظروف والملابسات، تواجه النفس البشرية، وتواجه الجماعة المسلمة، اليوم وغدا،** وتواجه الإنسانية كلها، وكأنها تتنزل اللحظة لها، ومن ثم يتجلى أن هذا القرآن هو قرآن هذه الدعوة في أي مكان وفي أي زمان، وهو دستور هذه الأمة في أي جيل ومن أي قبيل، وهو حادي الطريق وهادي السبيل على توالي القرون، ذلك أنه خطاب الله الأخير لهذا الإنسان في جميع العصور.
وقد اضطر رجل كعبد الله بن أبي بن سلول من عظماء الخزرج أن ينزل عن كبريائه وكراهته لهذا الدين ونبيه صلى الله عليه وسلم، **وأن ينضم منافقا للجماعة المسلمة، وهو يقول: هذا أمر قد توجه، وبذلك وجدت بذرة النفاق**

في المدينة، أو تمت وأفرخت، فقد كان هناك قبل بدر من اضطروا لمنافقة أهلهم الذين دخلوا في الإسلام، وقد وجد هؤلاء المنافقون حلفاء طبيعيين لهم في اليهود، الذين كانوا يجدون في أنفسهم من الحقد على الإسلام والمسلمين، وعلى نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام مثل ما يجد المنافقون بل أشد.
وقع حادث بني قينقاع فوضح العداء وسفر، على الرغم مما كان بين اليهود والنبي صلى الله عليه وسلم من مواثيق أبرمها معهم عقب مقدمه إلى المدينة، كذلك كان المشركون موتورين من هزيمتهم في بدر.
وبينما كان أعداء المعسكر الإسلامي في عنفوان قوتهم وفي عنفوان حقدهم كذلك، **كان الصف المسلم ما يزال في أوائل نشأته بالمدينة، غير متناسق تماما،** فيه الصفوة المختارة من السابقين من المهاجرين والأنصار، ولكن فيه كذلك نفوس وشخصيات لم تنضج بعد، والجماعة كلها على العموم لم تنل من التجارب الواقعية ما يسوي النتوءات، ويوضح حقيقة الدعوة وحقيقة الظروف الملابسة لها، وحقيقة منهجها العملي وتكاليفه.
كان للمنافقين، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي، **مكانتهم في المجتمع،** وروابطهم العائلية والقبلية لم تنفصم بعد، **ولم ينضج في نفوس المسلمين الشعور بأن عقيدتهم وحدها هي أسرتهم وهي قبيلتهم وهي وشيجتهم التي لا وشيجة معها،** ومن ثم كانت هناك خلخلة في الصف الإسلامي بسبب وجود مثل هذه العناصر مندمجة في الصف، مؤثرة في مقاديره.

وكان لليهود مكانتهم كذلك في المدينة، وارتباطاتهم الاقتصادية والتعهدية مع أهلها، ولم يتبين عداؤهم سافرا، ولم ينضج في نفوس المسلمين كذلك الشعور بأن عقيدتهم وحدها هي العهد وهي الوطن، وهي أصل التعامل والتعاقد، **وأنه لا بقاء لصلة ولا وشيجة إذا هي تعارضت مع العقيدة،** ومن ثم كانت لليهود فرصة للتوجيه والتشكيك والبلبلة، وكان هناك من يسمع لقولهم في الجماعة المسلمة ويتأثر به.
وكان هذا النصر في الوقعة الأولى التي يلتقي فيها جند الله بجند الشرك قدرا من قدر الله، ندرك اليوم طرفا من حكمته، ولعله كان لتثبيت الدعوة الناشئة وتمكينها، بل لإثبات وجودها الفعلي على محك المعركة، لتأخذ بعد ذلك طريقها.
فأما المسلمون فلعلهم قد وقع في نفوسهم من هذا النصر أنه الشأن الطبيعي الذي لا شأن غيره، وأنه لابد ملازمهم على أي حال في كل مراحل الطريق،

أليسوا بالمسلمين، أليس أعداؤهم بالكافرين، وإذن فهو النصر لا محالة حيثما التقى المسلمون بالكافرين، **غير أن سنة الله في النصر والهزيمة ليست بهذه الدرجة من البساطة والسذاجة، فلهذه السنة مقتضياتها في تكوين النفوس، وتكوين الصفوف، وإعداد العدة، واتباع المنهج، والتزام الطاعة والنظام، واليقظة لخوالج النفس ولحركات الميدان،** وهذا ما أراد الله أن يعلمهم إياه بالهزيمة في غزوة أحد على النحو الذي تعرضه السورة عرضا حيا مؤثرا عميقا، وتعرض أسبابه من تصرفات بعض المسلمين، وتوجه في ظله العظات البناءة للنفس وللصف على السواء.
وحين نراجع غزوة أحد نجد أن **تعليم المسلمين هذا الدرس قد كلفهم أهوالا وجراحات وشهداء من أعز الشهداء،** على رأسهم حمزة رضي الله عنه وأرضاه، وكلفهم ما هو أشق من ذلك كله على نفوسهم، كلفهم أن يروا رسولهم الحبيب تشج جبهته وتكسر سنه، ويسقط في الحفرة، ويغوص حلق المغفر في وجنته صلى الله عليه وسلم، الأمر الذي لا يقوم بوزنه شيء في نفوس المسلمين.

ويسبق استعراض غزوة أحد وأحداثها في السورة **قطاع كبير تستغرقه كله توجيهات متشعبة لتصفية التصور الإسلامي من كل شائبة،** ولتقرير حقيقة التوحيد جلية ناصعة، والرد على الشبهات التي يلقيها أهل الكتاب.
الآيات من 1 – 83 ، فإنه واضح من الموضوع الذي تعالجه أنها تواجه **شبهات النصارى** وبخاصة ما يتعلق منها بعيسى عليه السلام، وتدور حول عقيدة التوحيد الخالص كما جاء به الإسلام، وتصحح لهم ما أصاب عقائدهم من انحراف وخلط وتشويه، وتدعوهم إلى الحق الواحد الذي تضمنته كتبهم الصحيحة التي جاء القرآن بصدقها، ولكن هذا الفصل **يتضمن كذلك إشارات وتقريعات لليهود وتحذيرات للمسلمين من دسائس أهل الكتاب،** وما كان يجاورهم في المدينة من أهل الكتاب ممن يمثل مثل هذا الخطر إلا اليهود، كما يصور جانبا من جوانب الصراع بين العقيدة الإسلامية والعقائد المنحرفة في الجزيرة كلها، وهو ليس صراعا نظريا إنما هو الجانب النظري من **المعركة الكبيرة الشاملة بين الجماعة المسلمة الناشئة وكل أعدائها،** وهي في صميمها المعركة التي ما تزال ناشبة إلى هذه اللحظة بين الأمة المسلمة وأعدائها، إنهم هم: الملحدون المنكرون، والصهيونية العالمية، والصليبية العالمية.

ومن مراجعة نصوص السورة يتبين أن **الوسائل هي الوسائل كذلك، والأهداف هي الأهداف**، ويتجلى أن **هذا القرآن هو قرآن هذه الدعوة ، ومرجع هذه الأمة، اليوم وغدا**، كما كان قرآنها ومرجعها بالأمس في نشأتها الأولى، وأنه لا يعرض عن استنصاح هذا الناصح واستشارة هذا المرجع في المعركة الناشبة اليوم إلا مدخول يعرض عن سلاح النصر في المعركة، ويخدع نفسه أو يخدع الأمة، لخدمة أعدائها القدامى المحدثين في غفلة بلهاء أو في خبث لئيم.
ومن خلال المناقشات والجدل والاستعراض والتوجيه في هذا المقطع الأول يتبين موقف أهل الكتاب المنحرفين عن كتابهم ، من الجماعة المسلمة والعقيدة الجديدة ، ممثلا في أمثال هذه النصوص (7، 23، 65، 69-72، 75، 78، 98-99، 119-120)، **وهكذا نرى أن أعداء الجماعة المسلمة لم يكونوا يحاربونها في الميدان بالسيف والرمح فحسب، ولم يكونوا يؤلبون عليها الأعداء ليحاربوها بالسيف والرمح فحسب، إنما كانوا يحاربونها أولا في عقيدتها، فإن هذه الأمة لا تؤتى إلا من هذا المدخل، ولا تهن إلا إذا وهنت عقيدتها، ولا تهزم إلا إذا هزمت روحها.**

ومن هنا يبدو أن أعدى أعداء هذه الأمة هو الذي يلهيها عن عقيدتها الإيمانية، ويحيد بها عن منهج الله وطريقه، ويخدعها عن حقيقة أعدائها وحقيقة أهدافهم البعيدة، **إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هي قبل كل شيء معركة هذه العقيدة**، وكلما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة، والتشكيك فيها، والتوهين من عراها، استخدم أعداؤها هذه الوسائل المترقية الجديدة، ولكن لنفس الغاية القديمة (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم)، فهذه هي الغاية الثابتة الدفينة.
لهذا كان القرآن يدفع هذا السلاح المسموم أولا، كان يأخذ الجماعة المسلمة بالتثبيت على الحق الذي هي عليه، وينفي الشبهات والشكوك التي يلقيها أهل الكتاب، ويجلو الحقيقة الكبيرة التي يتضمنها هذا الدين، ويقنع الجماعة المسلمة بحقيقتها وقيمتها في هذه الأرض، ودورها ودور العقيدة التي تحملها في تاريخ البشرية (2-5، 10-13، 19، 26، 28، 68، 83، 85، 100-103، 110-112، 118-120).
ومن هذه الحملة الطويلة التي اقتطفنا منها هذه الآيات، وتنوع توجيهاتها وتلقيناتها **تتبين عدة أمور :**

أولها: ضخامة الجهد الذي كان يبذله أهل الكتاب في المدينة وغيرها، وعمق الكيد وتنوع أساليبه، واستخدام جميع الوسائل لزعزعة العقيدة وخلخلة الصف المسلم من ورائها.
وثانيها: ضخامة الآثار التي كان هذا الجهد يتركها في النفوس وفي حياة الجماعة المسلمة، مما اقتضى هذا البيان الطويل المفصل المنوع المقاطع والأساليب.
وثالثها: هو ما نلمحه اليوم من وراء القرون الطويلة، من أن هؤلاء الأعداء هم الذين يلاحقون هذه الدعوة وأصحابها في الأرض كلها، وهم الذين تواجههم هذه العقيدة وأهلها، ومن ثم اقتضت إرادة الحكيم الخبير أن يقيم هذا المشعل الهادي الضخم البعيد المطارح لتراه الأجيال المسلمة قويا واضحا عميق التركيز على كشف الأعداء التقليديين لهذه الأمة ولهذا الدين.

أما القطاع الثاني في السورة فهو خاص بغزوة أحد، وعلاقة هذا المقطع بالمقطع الأول في السورة ظاهرة، فهو يتولى عملية **بناء التصور الإسلامي وتجليته، في مجال المعركة والحديد ساخن،** كما يتولى عملية تثبيت هذه الجماعة على التكاليف المفروضة على أصحاب دعوة الحق في الأرض، مع تعليمهم سنة الله في النصر والهزيمة، ويربيهم بالتوجيهات القرآنية كما يربيهم بالأحداث الواقعية.

ونمضي إلى **ختام السورة،** بعد فصل غزوة أحد، فإذا هو تلخيص لموضوعاتها الأساسية، يبدأ بإشارة موحية إلى دلالة هذا الكون [كتاب الله المنظور] وإيحاءاته للقلوب المؤمنة (190-194)، ثم تجيء الاستجابة من الله سبحانه فيذكر فيها الهجرة والجهاد والإيذاء في سبيل الله (195، 199-200)، وتختم السورة بدعوة المسلمين - بإيمانهم - إلى الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى.

ولا يتم التعريف المجمل بهذه السورة حتى نلم بثلاثة خطوط عريضة فيها :
أول هذه الخطوط بيان معنى "الدين" ومعنى "الإسلام"، فليس الدين كما يحدده الله سبحانه ويريده ويرضاه هو كل اعتقاد في الله، إنما هي صورة واحدة من صور الاعتقاد فيه سبحانه، صورة التوحيد المطلق الناصع القاطع: **توحيد الألوهية** التي يتوجه إليها البشر كما تتوجه إليها سائر الخلائق في الكون

بالعبودية، **وتوحيد القوامة** على البشر وعلى الكون كله، فلا يقوم شيء إلا بالله تعالى، ولا يقوم على الخلائق إلا الله تعالى، ومن ثم يكون الدين الذي يقبله الله من عباده هو **"الإسلام"، وهو في هذه الحالة الاستسلام المطلق للقوامة الإلهية، والتلقي من هذا المصدر وحده في كل شأن من شؤون الحياة، والتحاكم إلى كتاب الله المنزل من هذا المصدر**، ويتكيء سياق السورة على هذا الخط ويوضحه في أكثر من ثلاثين موضعا من السورة بشكل ظاهر ملحوظ.

فأما الخط الثاني الذي يركز عليه سياق السورة فهو تصوير حال المسلمين مع ربهم واستسلامهم له، وتلقيهم لكل ما يأتيهم منه بالقبول والطاعة والاتباع الدقيق.

والخط الثالث العريض في سياق السورة هو التحذير من ولاية غير المؤمنين، والتهوين من شأن الكافرين مع هذا التحذير، وتقرير أنه لا إيمان ولا صلة بالله مع تولي الكفار الذين لا يحتكمون لكتاب الله، ولا يتبعون منهجه في الحياة.

وهذه الخطوط الثلاثة العريضة متناسقة فيما بينها متكاملة، في تقرير التصور الإسلامي، وتوضيح حقيقة التوحيد ومقتضاه في حياة البشر وفي شعورهم بالله، وأثر ذلك في موقفهم من أعداء الله الذي لا موقف لهم سواه .

والنصوص في مواضعها من السياق أكثر حيوية وأعمق إيحاء، لقد نزلت في معمعان المعركة، معركة العقيدة، ومعركة الميدان، المعركة في داخل النفوس، والمعركة في واقع الحياة، ومن ثم تضمنت ذلك الرصيد الحي العجيب، من الحركة والتأثير والإيحاء.

مقدمة سورة النساء

والمتوقع أن يكون نزول آيات هذه السورة **قد امتد من بعد غزوة أحد في السنة الثالثة الهجرية، إلى ما بعد السنة الثامنة**، حين نزلت مقدمة سورة الممتحنة.
هذه السورة تمثل جانبا من الجهد الذي أنفقه الإسلام في بناء الجماعة المسلمة، وإنشاء المجتمع الإسلامي، وفي حماية تلك الجماعة، وصيانة هذا المجتمع، وتعرض نموذجا من فعل القرآن في المجتمع الجديد، الذي انبثق أصلا من خلال نصوصه، والذي نشأ ابتداء من خلال المنهج الرباني.
إن السورة تعمل بجد وجهد في **محو ملامح المجتمع الجاهلي**، الذي منه التقطت المجموعة المسلمة، ونبذ رواسبه، وفي تكييف ملامح المجتمع المسلم، وتطهيره من رواسب الجاهلية فيه، وجلاء شخصيته الخاصة، كما **تعمل بجد وجهد في استجاشته للدفاع عن كينونته المميزة**، وذلك ببيان طبيعة المنهج الذي منه انبثقت هذه الكينونة المميزة، والتعريف بأعدائه الراصدين له من حوله، من المشركين وأهل الكتاب وبخاصة اليهود، وأعدائه المتميعين فيه، من ضعاف الإيمان والمنافقين، وكشف وسائلهم وحيلهم ومكايدهم، وبيان فساد تصوراتهم ومناهجهم وطرائقهم، مع وضع الأنظمة والتشريعات التي تنظم هذا كله وتحدده، وتصبه في القالب التنفيذي المضبوط.
والذي يدقق النظر في هذه الظاهرة الفريدة في تاريخ البشرية، **يتجلى له جانب من حكمة الله في اختيار "الأميين" في الجزيرة العربية**، في ذلك الحين، لهذه الرسالة العظيمة، حيث يمثلون سفح الجاهلية الكاملة، بكل مقوماتها، الاعتقادية والتصورية، والعقلية والفكرية، والأخلاقية والاجتماعية، والاقتصادية والسياسية، ليعرف فيهم أثر هذا المنهج، وليتبين فيهم كيف تتم المعجزة الخارقة، التي لا يملك أن يأتي بها منهج آخر، في كل ما عرفت الأرض من مناهج.

إن هذا المنهج ثابت في أصوله ومقوماته، لأنه يتعامل مع "الإنسان"، وللإنسان كينونة ثابتة، فهو لا يتبدل منها كينونة أخرى، ومن ثم تواجه النصوص القرآنية الثابتة، تلك الكينونة البشرية الثابتة، ولأنها من صنع المصدر الذي صنع الإنسان، فإنها تواجه حياته بظروفها المتغيرة، وأطوارها المتجددة، بنفس المرونة التي يواجه بها الإنسان ظروف الحياة المتغيرة، وأطوارها المتجددة، وهو محافظ على مقوماته الأساسية، مقومات الإنسان.

وهكذا **يستطيع ذلك المنهج، وتستطيع هذه النصوص، أن تلتقط الفرد الإنساني، وأن تلتقط المجموعة الإنسانية، من أي مستوى، ومن أية درجة من درجات المرتقى الصاعد، فينتهي به وبها إلى القمة السامقة،** إنه لا يرده ولا يردها أبدا إلى الوراء، ولا يهبط به أو بها أبدا إلى درجة أسفل في المرتقى، كما أنه لا يضيق به ولا بها، ولا يعجز عن رفعه ورفعها، أيا كان مكانه أو مكانها من السفح السحيق.
المجتمع البدائي المتخلف كالمجتمع العربي في الجاهلية القديمة، والمجتمع الصناعي المتحضر، كالمجتمع الأوربي والأمريكي في الجاهلية الحديثة، كلاهما يجد في المنهج الرباني والنصوص القرآنية مكانة، ويجد من يأخذ بيده من هذا المكان، فيرقى به في المرتقى الصاعد، إلى القمة السامقة، التي حققها الإسلام، في فترة حية من فترات التاريخ الإنساني.

إن الجاهلية ليست فترة ماضية من فترات التاريخ، إنما الجاهلية كل منهج تتمثل فيه عبودية البشر للبشر، وهذه الخاصية تتمثل اليوم **في كل مناهج الأرض بلا استثناء،** ففي كل المناهج التي تعتنقها البشرية اليوم، يأخذ البشر عن بشر مثلهم التصورات والمبادىء، والموازين والقيم، والشرائع والقوانين، والأوضاع والتقاليد، وهذه هي الجاهلية بكل مقوماتها، الجاهلية التي تتمثل فيها عبودية البشر للبشر، حيث يتعبد بعضهم بعضا من دون الله.

والإسلام هو منهج الحياة الوحيد، الذي يتحرر فيه البشر من عبودية البشر، لأنهم يتلقون التصورات والمبادىء، والموازين والقيم، والشرائع والقوانين، والأوضاع والتقاليد، من يد الله سبحانه، فإذا أحنوا رؤوسهم فإنما يحنونها لله وحده، وإذا أطاعوا الشرائع فإنما يطيعون الله وحده، وإذا خضعوا للنظام فإنما يخضعون لله وحده، ومن ثم يتحررون حقا من عبودية العبيد للعبيد، حين يصبحون كلهم عبيدا لله بلا شريك.
ومفهوم أن كل أمر أو نهي أو توجيه ورد في القرآن الكريم، كان يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي، وكان يتوخى إما إنشاء حالة غير قائمة، وإما إبطال حالة قائمة، وذلك دون إخلال بالقاعدة الأصولية العامة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"، ومع ملاحظة أن النصوص القرآنية جاءت لتعمل في كل جيل وفي كل بيئة كما أسلفنا، وفي هذا تكمن المعجزة، **فهذه النصوص**

التي جاءت لتواجه أحوالا بعينها، هي ذاتها التي تواجه الجماعة الإنسانية، في أي طور من أطوارها.

ومن ثم فنحن حين نقرأ القرآن **نستطيع أن نتبين منه ملامح المجتمع الجاهلي،** من خلال أوامره ونواهيه وتوجيهاته، كما نستطيع أن نتبين الملامح الجديدة التي يريد أن ينشئها، وأن يثبتها في المجتمع الجديد.

إننا **نجد مجتمعا تؤكل فيه حقوق الأيتام**، وبخاصة اليتيمات، في حجور الأهل والأولياء والأوصياء، ويستبدل الخبيث منها بالطيب، ويعمل فيها بالإسراف والطمع، خيفة أن يكبر اليتامى فيستردوها، وتحبس فيه الصغيرات من ذوات المال، ليتخذهن الأولياء زوجات، طمعا في مالهم لا رغبة فيهن، أو يعطين لأطفال الأولياء للغرض ذاته.

ونجد **مجتمعا يجار فيه على الصغار والضعاف والنساء،** فلا يسلم لهم فيه بنصيبيهم الحقيقي من الميراث، إنما يستأثر فيه بمعظم التركة الرجال الأقوياء، القادرون على حمل السلاح، ولا ينال الضعاف فيه إلا الفتات، وهذا الفتات الذي تناله اليتيمات الصغيرات والنسوة الكبيرات، هو الذي يحتجزن من أجله، ويحبسن على الأطفال من الذكور، أو على الشيوخ من الأولياء، كي لا يخرج المال بعيدا ولا يذهب في الغرباء.

ونجد **مجتمعا يضع المرأة موضعا غير كريم،** ويعاملها بالعسف والجور في كل أدوار حياتها، يحرمها الميراث، أو يحبسها لما ينالها منه، ويورثها للرجل كما يورثه المتاع، فإذا مات زوجها جاء وليه، فألقى عليها ثوبه، فيعرف أنها محجوزة له، إن شاء نكحها بغير مهر، وإن شاء زوجها وأخذ مهرها، ويعضلها زوجها إذا طلقها، فيدعها لا هي زوجة، ولا هي مطلقة، حتى تفتدي نفسها منه وتفك أسرها.

ونجد **مجتمعا تضطرب فيه قواعد الأسرة** بسبب هبوط مركز المرأة فيه، علاوة على اضطراب قواعد التبني والولاء، واصطدامها مع قواعد القرابة والنسب، فوق ما فيه من فوضى في العلاقات الجنسية والعائلية، حيث تروج اتصالات السفاح والمخادنة.

ونجد **مجتمعا تؤكل فيه الأموال بالباطل في المعاملات الربوية، وتغتصب فيه الحقوق**، وتجحد فيه الأمانات، وتكثر فيه الغارات على الأموال والأرواح، ويقل فيه العدل فلا يناله إلا الأقوياء، كما لا تنفق فيه الأموال إلا رئاء الناس،

اجتلابا للمفاخر، ولا ينال الضعاف المحاويج فيه من هذا الإنفاق ما ينال الأقوياء الأغنياء.

إنه لم يكن قطعا مجتمعا بلا فضائل، فقد كانت له فضائله، التي تهيأ بها لاستقبال هذه الرسالة الكبرى، ولكن هذه الفضائل إنما استنقذها الإسلام استنقاذا، ووجهها الوجهة البناءة.

من تلك الجاهلية، التي هذه بعض ملامحها، **التقط الإسلام المجموعة التي قسم الله لها الخير، وقدر أن يسلمها قيادة البشر**، فكون منها الجماعة المسلمة، وأنشأ بها المجتمع المسلم، ذلك المجتمع الذي بلغ إلى القمة التي لم تبلغها البشرية قط، والتي ما تزال أملا للبشرية، يمكن أن تحاوله، حين يصح منها العزم على انتهاج الطريق.

وفي هذه السورة نجد **بعض الملامح التي يتوخى المنهج الإسلامي إنشاءها وتثبيتها في المجتمع المسلم**، بعد تطهيره من رواسب الجاهلية، وإنشاء الأوضاع والتشريعات التنفيذية، التي تكفل حماية هذه الملامح وتثبيتها في الواقع الاجتماعي :

1- **نجد في مستهلها تقريرا لحقيقة الربوبية ووحدانيتها**، ولحقيقة الإنسانية ووحدة أصلها الذي أنشأها منه ربها، ولحقيقة قيامها على قاعدة الأسرة، واتصالها بوشيجة الرحم، مع استجاشة هذه الروابط كلها في الضمير البشري، واتخاذها ركيزة لتنظيم المجتمع الإسلامي على أساسها، وحماية الضعفاء فيه عن طريق التكافل بين الأسرة الواحدة، ذات الخالق الواحد، وحماية هذا المجتمع من الفاحشة والظلم والفتنة، وتنظيم الأسرةالمسلمة والمجتمع المسلم، والمجتمع الإنساني كله، على أساس وحدة الربوبية ووحدة البشرية (1).
2- **ونجد التشريعات العملية لتحقيق البناء التكافلي للجماعة مستندة إلى تلك الركيزة :**

في حماية اليتامى نجد التوجيه الموحي، والتحذير المخيف، والتشريع المحدد الأصول (2، 6، 9-10).

وفي حماية الإناث خاصة، يتيمات صغيرات ونساء مستضعفات، وحفظ حقهن جميعا في الميراث، وفي الكسب، وفي حقهن في أنفسهن، واستنقاذهن من عسف الجاهلية، وتقاليدها الظالمة المهينة (3-4، 7، 19-21، 127).

وفي تنظيم الأسرة، وإقامتها على أساس ثابت من موحيات الفطرة، وتوفير الحماية لها من تأثير الملابسات العارضة في جو الحياة الزوجية والحياة الاجتماعية، بالإضافة إلى ما ورد منها في ثنايا الحديث عن اليتيمات والمطلقات (22-24، 34-35، 128-130).
وفي تنظيم علاقات الميراث والتكافل بين أفراد الأسرة الواحدة، وبين الموالي والأولياء الذين كانوا متعاقدين قبل نزول تشريعات النسب، وإبطال التبني، ترد هذه المبادئ الجامعة وهذه التشريعات المحددة (7، 11-12، 33،176).
وفي حماية المجتمع من الفاحشة، وتوفير أسباب الإحصان والوقاية (15-16، 25-26).
وفي تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم كله، وإقامتها على التكافل والتراحم والتناصح، والأمانة، والعدل، والسماحة والمودة، والإحسان (8،5، 29-30، 32، 36-38، 58، 85-86، 92-93، 135، 148-149).

إلى جانب ذلك الهدف الكبير في تنظيم المجتمع المسلم، نجد هدفا آخر لا يقل عنه عمقا ولا أثرا في حياة المجتمع المسلم، إن لم يكن هو الأساس الذي يقوم عليه الهدف الأول، ذلك هو **تحديد معنى الدين، وحد الإيمان، وشرط الإسلام، وربط كل الأنظمة والتشريعات التي تحكم حياة الفرد وحياة المجتمع بذلك المعنى المحدد للدين، وهذا التعريف المضبوط للإيمان والإسلام**.
إن الدين هو النظام الذي قرره الله للحياة البشرية بجملتها، والمنهج الذي يسير عليه نشاط الحياة برمتها، والله وحده هو صاحب الحق في وضع هذا المنهج بلا شريك، والدين هو الاتباع والطاعة للقيادة الربانية التي لها وحدها حق الطاعة والاتباع، ومنها وحدها يكون التلقي، ولها وحدها يكون الاستسلام، وشرط هذه التبعية هو التحاكم إلى الله والرسول، ورد الأمر كله إلى الله، والرضى بحكم رسوله وتنفيذه مع القبول والتسليم.
وتبلغ نصوص السورة في بيان هذه الحقيقة، وتقرير هذا الأصل، مبلغا حاسما جازما، لا سبيل للجدال فيه، أو الاحتيال عليه، أو تمويهه وتلبيسه، لأنها من القوة والوضوح والحسم بحيث لا تقبل الجدال، **يتمثل على وجه الإجمال** في آية الافتتاح في السورة كما يتمثل في (48،36)، **ويتمثل على وجه التخصيص والتحديد** في (59-61، 64-65، 80، 115).
وهكذا يتحدد معنى الدين، وحد الإيمان، وشرط الإسلام، ونظام المجتمع المسلم، ومنهجه في الحياة، **وهكذا لا يعود الإيمان مجرد مشاعر وتصورات**،

ولا يعود الإسلام مجرد كلمات وشعارات، ولا مجرد شعائر تعبدية وصلوات، إنما هو إلى جانب هذا وذلك، وقبل هذا وذلك، نظام يحكم، ومنهج يتحكم، وقيادة تطاع، ووضع يستند إلى نظام معين، ومنهج معين، وقيادة معينة، وبغير هذا كله لا يكون إيمان، ولا يكون إسلام، ولا يكون مجتمع ينسب نفسه إلى الإسلام.

وتترتب على إقرار هذا المبدأ الأساسي توجيهات كثيرة في السورة، كلها تفريعات على هذا الأصل الكبير:

1- **يترتب عليه أن تكون التنظيمات الاجتماعية كلها في المجتمع، شأنها شأن الشعائر التعبدية، مرتكنة إلى هذا الأصل الكبير،** مستندة إلى معنى الدين، وحد الإيمان، وشرط الإسلام، على هذا النحو الذي قررته تلك النماذج التي أسلفنا، فهي ليست مجرد تنظيمات وتشريعات، إنما هي مقتضى الإيمان بالله والاعتراف بألوهيته، وإفراده بالألوهية، والتلقي من القيادة التي يحددها، ومن ثم نرى كل التشريعات والتنظيمات التي أشرنا إليها تستند إلى هذه الجهة، وينص في أعقابها نصا على هذه الحقيقة.

2- ويترتب على إقرار ذلك الأصل الكبير **أن يكون ولاء المؤمنين لقيادتهم ولجماعتهم المؤمنة، فلا يتولوا أحدا لا يؤمن إيمانهم، ولا يتبع منهجهم،** ولا يخضع لنظامهم، ولا يتلقى من قيادتهم، كائنة ما كانت العلاقة التي تربطهم بهذا الأحد، علاقة قرابة، أو جنس، أو أرض أو مصلحة، وإلا فهو الشرك أو النفاق، وهو الخروج من الصف المسلم على كل حال (115-116، 139، 144-146).

3- ويترتب عليه **وجوب هجرة المسلمين من دار الحرب، وهي كل دار لا تقوم فيها شريعة الإسلام ولا تدين للقيادة المسلمة، ليلحقوا بالجماعة المسلمة متى قامت في الأرض وأصبح لها قيادة وسلطان،** وليستظلوا برايه القيادة المسلمة ولا يخضعوا لراية الكفر، وهي كل راية غير راية الإسلام، وإلا فهو النفاق أو الكفر،وهو الخروج من الصف المسلم على كل حال (88-89، 97-100).

4- ويترتب عليه **أن يقاتل المسلمون لاستنقاذ الضعاف من إخوانهم المسلمين،** الذين لا يستطيعون الهجرة من دار الحرب وراية الكفر، وضمهم إلى الجماعة المسلمة في دار الإسلام، كي لا يفتنوا عن

دينهم، ولا يستظلوا براية غير راية الإسلام، ولا يخضعوا لنظام غير نظامه، ثم لكي يتمتعوا بالنظام الإسلامي الرفيع، وبالحياة في المجتمع الإسلامي النظيف، وهو حق كل مسلم (75).

ويستتبع هذا الأمر **حملة ضخمة للحض على الجهاد بالنفس والمال، والتنديد بالمعوقين والمبطئين والقاعدين،** وهي حملة تستغرق قطاعا كبيرا من السورة، يرتفع عندها نبض السورة الهادئة الأنفاس، ويشتد إيقاعها، وتحمى لذعاتها في التوجيه والتنديد (71-76، 84، 95-96، 104).
وفي ثنايا هذه الحملة للحض على الجهاد توضع **بعض قواعد المعاملات الدولية بين "دار الإسلام" والمعسكرات المتعددة التي تدور معها المعاملات، والخلافات:**
في التعقيب على انقسام المسلمين فئتين ورأيين في أمر المنافقين، الذين يدخلون المدينة للتجارة والمنافع والاتصال مع أهلها، حتى إذا خرجوا منها عادوا موالين لمعسكرات الأعداء (89-91، 94).
وكذلك تجيء في ثنايا الحديث عن الجهاد **بعض الأحكام الخاصة بالصلاة في حالة الخوف وحالة الأمن،** مع توصيات الله للمؤمنين وتحذيرهم من أعدائهم المتربصين (101-103)، وتدل هذه الآيات على **مكان الصلاة من الحياة الإسلامية،** حتى لتذكر في مقام الخوف، وتبين كيفياتها في هذا المقام، كما تدل على تكامل هذا المنهج، في مواجهة الحياة الإنسانية في كل حالاتها، ومتابعة الفرد المسلم والجماعة المسلمة في كل لحظة وفي كل حال.
ويستتبع الأمر بالجهاد كذلك **حملة ضخمة على المنافقين وعلى موالاتهم لليهود** في المدينة بينما هم يكيدون لدين الله، وللجماعة المسلمة، وللقيادة المسلمة كيدا شديدا، وعلى ألاعيبهم في الصف المسلم، وتمييعهم للقيم والنظم، وفي الآيات التي اقتطفناها من قطاع الجهاد طرف من الحملة على المنافقين، يضاف إليها (81-83، 137-145).

وفي قطاع الجهاد نلتقي **بالحرب المشبوبة على الجماعة المسلمة، وعلى العقيدة الإسلامية، والقيادة الإسلامية كذلك، من أهل الكتاب، وبخاصة اليهود، وحلفائهم من المنافقين في المدينة،** والمشركين في مكة، وما حولهما، ونلتقي كذلك بالمنهج الرباني، وهو يأخذ بيد الجماعة المسلمة السائرة بين الأشواك الخبيثة، والأحابيل الماكرة، يقودها، ويوجهها، ويحذرها،

ويكشف لها طبيعة أعدائها، وطبيعة المعركة التي تخوضها، وطبيعة الأرض التي تدور فيها المعركة، وزواياها وجوانبها الخبيثة.
ومن علامات الإعجاز في هذا القرآن، أن **هذه النصوص التي نزلت لتواجه معركة معينة، ما تزال هي بذاتها تصور طبيعة المعركة الدائمة المتجددة بين الجماعة المسلمة في كل مكان، وعلى توالي الأجيال، وبين أعدائها التقليديين، الذين ما يزالون هم هم،** وما تزال حوافزهم هي هي في أصلها، وإن اختلفت أشكالها وظواهرها وأسبابها القريبة، وما تزال أهدافهم هي هي في طبيعتها وإن اختلفت أدواتها ووسائلها، وما تزال زلزلة العقيدة، وزعزعة الصف، والتشكيك في القيادة الربانية، هي الأهداف التي تصوب إليها طلقاتهم الماكرة، للوصول من ورائها إلى الاستيلاء على مقاليد الجماعة المسلمة، والتصرف في مقاديرها، واستغلال أرضها وجهدها وغلاتها وقواها وطاقاتها، كما كانت يهود تستغل الأوس والخزرج في المدينة، قبل أن يعزهم الله ويجمعهم بالإسلام، وبالقيادة المسلمة، وبالمنهج الرباني (44-55، 150-151، 153-161)، والتماسك حول العقيدة القويمة والقيادة الأمينة هو الذي يتعب اليهود وأعداء الجماعة المسلمة في كل زمان، وهو الذي يكلفهم الجهد والمشقة، ومن ثم تتجه جهودهم أولا لتحطيمه، وتسليم مقادة المسلمين إلى الهوى والجاهلية من جديد.
إنه لا غرابة في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا غرابة في قيادته، ولا غرابة في حاكميته، وكلها مألوف في عالم الرسالات، وكل تعلات بني إسرائيل في هذا الأمر كاذبة، وكل شبهاتهم كذلك باطلة، ولهم سوابق مثلها مع نبيهم الأكبر موسى عليه السلام، ومع أنبيائهم من بعده (163-166، 153-157، 54-55).

كما تتولى السورة بيان **بعض مقومات التصور الإسلامي الأساسية، وتجلو عنها الغبش، وتقرر وحدة الألوهية وحقيقة العبودية، وتبين حقيقة قدر الله وعلاقته بخلقه، وحقيقة الأجل وعلاقته بقدر الله، وحدود ما يغفره الله من الذنوب، وحدود التوبة وحقيقتها، وقواعد العمل والجزاء** (17-18، 26-28، 31، 40، 77-79، 116، 123-124، 147، 150-152، 171-173).

ثم **الأسس الأخلاقية الرفيعة، التي يقام عليها بناء المجتمع المسلم، فالعنصر الأخلاقي أصيل وعميق في كيان التصور الإسلامي، وفي كيان المجتمع**

المسلم، بحيث لا يخلو منه جانب من جوانب الحياة ونشاطها كله، إنه مجتمع يقوم على العبودية لله وحده، فهو مجتمع متحرر إذن من كل عبودية للعبيد، في أية صورة من صور العبودية، المتحققة في كل نظام على وجه الأرض، ما عدا النظام الإسلامي، ومن هذه الحرية تنطلق الفضائل كلها، وتنطلق الأخلاقيات كلها، لأن مرجعها جميعا إلى ابتغاء رضوان الله، ومرتقاها ممتد إلى التحلي بأخلاق الله، وهي مبرأة إذن من النفاق والرياء، والتطلع إلى غير وجه الله، وهذا هو الأصل الكبير في أخلاقية الإسلام، وفي فضائل المجتمع المسلم.

ثم ترد **بعض مفردات العنصر الأخلاقي**، إلى جانب ذلك الأصل الكبير، في السورة، فهو مجتمع يقوم على الأمانة، والعدل، وعدم أكل الأموال بالباطل، وعدم النجوى والتآمر إلا في معروف، وعدم الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم، والشفاعة الحسنة، والتحية الحسنة، ومنع الفاحشة، وتحريم السفاح والمخادنة، وعدم الاختيال والفخر، والرياء والبخل، والحسد والغل، كما يقوم على التكافل والتعاون والتناصح والتسامح، والنخوة والنجدة، وطاعة القيادة التي لها وحدها حق الطاعة.. إلخ.

كان الله يأمر الأمة المسلمة بالأمانة المطلقة، وبالعدل المطلق بين الناس، الناس على اختلاف أجناسهم وعقائدهم، وقومياتهم وأوطانهم (58، 135).

ثم كانت الآيات ذوات العدد من القرآن تتنزل لإنصاف يهودي فرد من اتهام ظالم، وجهته إليه عصبة من المسلمين من الأنصار، ممن لم ترسخ في قلوبهم هذه المبادىء السامقة بعد، ولم تخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية كل الخلوص، فدفعتهم عصبية الدم والعشيرة إلى تبرئة أحدهم باتهام هذا اليهودي، والتواطؤ على اتهامه، والشهادة ضده في حادث سرقة درع أمام النبي صلى الله عليه وسلم، حتى كاد أن يقضي عليه بحد السرقة، ويبرىء الفاعل الأصلي. ولكن تنزلت هذه الآيات ذوات العدد، فيها عتاب شديد للنبي صلى الله عليه وسلم، وفيها إنحاء باللائمة على العصبة من أهل المدينة الذين آووا النبي صلى الله عليه وسلم وعزروه ونصروه، إنصافا ليهودي، من تلك الفئة التي تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الإيذاء، وتكيد له وللمسلمين هذا الكيد اللئيم (105-116).

ماذا يملك الإنسان أن يقول؟ ألا أنه المنهج الفريد، الذي يملك وحده أن يلتقط الجماعة البشرية، من سفح الجاهلية ذاك، فيرتقي بها في ذلك المرتقى الصاعد، فيبلغ بها إلى تلك القمة السامقة، في مثل هذا الزمن القصير.

مقدمة سورة المائدة

نزل هذا القرآن الكريم على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لينشىء به أمة، وليقيم به دولة، ولينظم به مجتمعا، وليربي به ضمائر وأخلاقا وعقولا، وليحدد به روابط ذلك المجتمع، فيما بينه، وروابط تلك الدولة مع سائر الدول، وعلاقات تلك الأمة بشتى الأمم، وليربط ذلك كله برباط قوي واحد، يجمع متفرقه، ويؤلف أجزاءه، ويشدها كلها إلى مصدر واحد، وإلى سلطان واحد، وإلى جهة واحدة، وذلك هو الدين، كما هو في حقيقته عند الله، وكما عرفه المسلمون، أيام أن كانوا مسلمين بحق.

إن الهدف الأصيل الذي جاء القرآن كله لتحقيقه هو إنشاء أمة، وإقامة دولة، وتنظيم مجتمع، على أساس من عقيدة خاصة، وتصور معين، وبناء جديد، الأصل فيه إفراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان، وتلقي منهج الحياة وشريعتها ونظامها وموازينها وقيمها منه وحده بلا شريك.

وكذلك نجد بناء التصور الاعتقادي وتوضيحه وتخليصه من أساطير الوثنية، وانحرافات أهل الكتاب وتحريفاتهم، إلى جانب تبصير الجماعة المسلمة بحقيقة ذاتها وحقيقة دورها، وطبيعة طريقها، وما في هذا الطريق من مزالق وأشواك، وشباك يرصدها لها أعداؤها وأعداء هذا الدين، إلى جانب أحكام الشعائر التعبدية التي تطهر روح الفرد المسلم وروح الجماعة المسلمة، وتربطها بربها، إلى جانب التشريعات الاجتماعية التي تنظم روابط مجتمعها، والتشريعات الدولية التي تنظم علاقاتها بغيرها، إلى جانب التشريعات التي تحلل وتحرم ألوانا من المآكل والمشارب والمناكح، أو ألوانا من الأعمال والمسالك، كل ذلك حزمة واحدة في السورة الواحدة يمثل معنى "الدين" كما أراده الله وكما فهمه المسلمون، أيام أن كانوا مسلمين بحق.

ولا يكتفي السياق القرآني هنا بهذا المعنى الضمني، إنما ينص عليه نصا، ويؤكده تأكيدا، ويتكىء عليه اتكاء شديدا وهو ينص على أن هذا كله هو "الدين"، وأن الإقرار به كله هو "الإيمان"، وأن الحكم به كله "هو الإسلام"، وأن الذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون، الظالمون، الفاسقون، وأنهم يبتغون حكم الجاهلية.

إن الله هو الذي يقرر الاعتقاد الصحيح للقلب، كما يقرر النظام الصحيح للحياة سواء بسواء، والمؤمنون به هم الذين يؤمنون بالعقيدة التي يقررها، ويتبعون

النظام الذي يرتضيه، هذه كتلك سواء بسواء، وهم يعبدونه بإقامة الشعائر، ويعبدونه باتباع الشرائع، بلا تفرقة بين الشعيرة والشريعة، فكلتاهما من عند الله، الذي لا سلطان لأحد في ملكه وعباده معه.
ومن ثم تتوارد النصوص هكذا في ثنايا السورة، في تقرير الألوهية الواحدة، ونفي كل شرك أو تثليث أو خلط بين ذات الله سبحانه وبين غيره، أو بين خصائص الألوهية، وخصائص العبودية على الإطلاق (15-19)، (72-73).
ولأن الله هو وحده الإله، وهو وحده الخالق، وهو وحده المالك، فهو وحده الذي يشرع، هو وحده الذي يحلل ويحرم، وهو وحده الذي يطاع فيما يشرع وفيما يحرم أو يحلل، كما أنه هو وحده الذي يعبد، وهو وحده الذي يتوجه إليه العباد بالشعائر، وقد أخذ الميثاق على عباده بهذا كله، فهو يطالب الذين آمنوا أن يفوا بميثاقهم وتعاقدهم معه، ويحذرهم عواقب نقض الميثاق وخلف العقود، كما وقع من بني إسرائيل قبلهم (1-2، 7-8، 12-14).

ويتضمن سياق السورة أحكاما شرعية منوعة، منها ما يتعلق بالحلال والحرام من الذبائح ومن الصيد، ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام في فترة الإحرام وفي المسجد الحرام، ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام من النكاح، ومنها ما يتعلق بالطهارة والصلاة، ومنها ما يتعلق بالقضاء وإقامة العدل فيه، ومنها ما يتعلق بالحدود في السرقة وفي الخروج على الجماعة المسلمة، ومنها ما يتعلق بالخمر والميسر والأنصاب والأزلام، ومنها ما يتعلق بالكفارات في قتل الصيد مع الإحرام وفي اليمين، ومنها ما يتعلق بالوصية عند الموت، ومنها ما يتعلق بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي من الأنعام، ومنها ما يتعلق بشريعة القصاص في التوراة مما جعله الله كذلك شريعة للمسلمين، وهكذا تلتقي الشرائع بالشعائر في سياق السورة بلا حاجز ولا فاصل.
ولا يدع السياق أمر الطاعة والاتباع في التحليل والتحريم مجملا، إنما هو ينص نصا على وجوب الحكم بما أنزل الله - دون سواه - وإلا فهو الكفر والظلم والفسق، وتتوارد النصوص القرآنية في هذا الأمر حاسمة جازمة على هذا النسق (41-50).
وهكذا تتبين القضية، إله واحد، وخالق واحد، ومالك واحد، وإذن فحاكم واحد، ومشرع واحد، ومتصرف واحد، وإذن فشريعة واحدة، ومنهج واحد، وقانون واحد، وإذن فطاعة واتباع وحكم بما أنزل الله، فهو إيمان وإسلام، أو معصية وخروج وحكم بغير ما أنزل الله، فهو كفر وظلم وفسوق، وهذا

هو الدين كما أخذ الله ميثاق العباد جميعا عليه، وكما جاء به كل الرسل من عنده، أمة محمد والأمم قبلها على السواء.
وهذه الحتمية: حتمية هذا التلازم بين "دين الله" و"الحكم بما أنزل الله" لا تنشأ فحسب من أن ما أنزل الله خير مما يصنع البشر لأنفسهم من مناهج وشرائع وأنظمة وأوضاع، فهذا سبب واحد من أسباب هذه الحتمية، وليس هو السبب الأول ولا الرئيسي، إنما السبب الأول والرئيسي، والقاعدة الأولى والأساس في حتمية هذا التلازم هي أن الحكم بما أنزل الله إقرار بألوهية الله، ونفي لهذه الألوهية وخصائصها عمن عداه، وهذا هو "الإسلام" بمعناه اللغوي : الاستسلام وبمعناه الاصطلاحي كما جاءت به الأديان، الإسلام لله، والتجرد عن ادعاء الألوهية معه، وادعاء أخص خصائص الألوهية، وهي السلطان والحاكمية، وحق تطويع العباد وتعبيدهم بالشريعة والقانون.

ولا يكفي إذن أن يتخذ البشر لأنفسهم شرائع تشابه شريعة الله، أو حتى شريعة الله نفسها بنصها، إذا هم نسبوها إلى أنفسهم، ووضعوا عليها شاراتهم، ولم يردوها لله، ولم يطبقوها باسم الله، إذعانا لسلطانه، واعترافا بألوهيته، وبتفرده بهذه الألوهية، التفرد الذي يجرد العباد من حق السلطان والحاكمية، إلا تطبيقا لشريعة الله، وتقريرا لسلطانه في الأرض.
ومن هذه الحتمية ينشأ الحكم الذي تقرره الآيات في سياق السورة: ذلك أن الذين لا يحكمون بما أنزل الله يعلنون رفضهم لألوهية الله سبحانه، ورفضهم لإفراد الله سبحانه بهذه الألوهية، يعلنون هذا الرفض بعملهم وواقعهم، ولو لم يعلنوه بأفواههم وألسنتهم، ولغة العمل والواقع أقوى وأكبر من لغة الفم واللسان، ومن ثم يصمهم القرآن بالكفر والظلم والفسق.

شأن آخر يتناوله سياق السورة، ذلك هو شأن هذه الأمة المسلمة، دورها الحقيقي في هذه الأرض، وموقفها تجاه أعدائها، وكشف هؤلاء الأعداء، وكيدهم لهذه الأمة ولهذا الدين، وبيان ما هم عليه من الضلالة والانحراف في عقيدتهم، وما هم عليه كذلك من العداء للجماعة المسلمة وإجماع الكيد لها، إنها المعركة التي يخوضها القرآن الكريم بالجماعة المسلمة، والتي سبق الحديث عنها في السور الثلاث (البقرة، آل عمران، النساء).
إن كتاب هذه الأمة هو كتاب الله الأخير للبشر، وهو يصدق ما بين يديه من الكتاب في أصل الاعتقاد والتصور، ولكنه بما أنه هو الكتاب الأخير، يهيمن

على كل ما سبقه، وإليه تنتهي شريعة الله التي ارتضاها لعباده إلى يوم الدين (3، 48).
ومن ثم فإن دور هذه الأمة هو أن تكون الوصية على البشرية، تقيم العدل في الأرض، غير متأثرة بمودة أو شنآن، وغير ناظرة في إقامة العدل إلى ما أصابها أو يصيبها من الناس فهذه هي تكاليف القوامة والوصاية والهيمنة، وغير متأثرة كذلك بانحرافات الآخرين وأهوائهم وشهواتهم، فلا تنحرف فيه شعرة عن منهجها وشريعتها وطريقها القويم، لاسترضاء أحد أو لتأليف قلب، وغير ناظرة إلا إلى الله وتقواه (2، 8، 48، 49).
ومن مقتضيات أن هذه الأمة هي وارثة الرسالات، ألا تتولى من يكفرون بهذا الدين، ومن يتخذون فرائضه وشعائره هزوا ولعبا، إنما تتولى الله ورسوله، ولا تركن إلى ولاية غير المؤمنين بالله ورسوله، فإنما هي أمة بعقيدتها لا بجنسها، ولا بأرضها، ولا بموروثاتها الجاهلية، إنما هي أمة بهذه العقيدة الجديدة، وبهذا المنهج الرباني، وبهذه الرسالة الأخيرة، وهذه هي آصرة التجمع الوحيدة (3، 51، 55، 57، 105).
أما أعداء هذه الأمة فهم أعداء الهدى، وأعداء منهج الله الصحيح دائما، وهم لا يريدون رؤية الحق، كما أنهم لا يريدون ترك العداء المستحكم في قلوبهم لهذا الحق من قبل ومن بعد، وعلى الأمة المسلمة أن تعرفهم على حقيقتهم، من تاريخهم القديم مع رسل الله، ومن موقفهم الجديد منها ومن رسولها ودينها القويم (12-14، 20-26، 32، 41-42، 59-64، 68-69، 78-82).

وهذه الحملة الكاشفة على أعداء الجماعة المسلمة، والتركيز فيها على اليهود والمشركين بصفة خاصة مع إشارات إلى المنافقين والنصارى أحيانا، تؤدي بنا إلى شأن آخر مما تعالجه هذه السورة: إنها تعالج موقفا حاضرا في حياة الجماعة المسلمة في المدينة يومذاك، كما تعالج موقف الأمة المسلمة، في تاريخها كله تجاه المعسكرات المعادية لها، وإنها لهي هي، على مدار الزمان.
ومن هذه الملاحظات يترجح لدينا أن مطالع السورة وبعض مقاطعها هي التي نزلت بعد سورة الفتح، بينما نزلت مقاطع منها قبل ذلك، كما أن الآية التي فيها قول الله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) لا بد أن تكون قد نزلت بعد ذلك، فقد كانت آخر ما نزل من القرآن على أرجح الأقوال، وأن السورة لم تنزل كلها مرة واحدة كما جاء في إحدى الروايات.

إن أهم قواعد البناء : تخليص عقيدة التوحيد من كل غبش، وبيان معنى الدين، وأنه هو منهج الحياة، وأن الحكم بما أنزل الله وحده، والتلقي في شئون الحياة كلها من الله وحده هو الإيمان، وهو الإسلام، وبغير هذا لا يكون هناك توحيد لله، فتوحيد الله هو إفراده سبحانه بالألوهية، والحاكمية والتشريع للناس من خصائص الألوهية، كتعبيدهم بالعبادة الشعائرية سواء بسواء.

والطابع البارز لهذه السورة هو طابع التقرير والحسم في التعبير، سواء في ذلك الأحكام الشرعية التي تقتضي بطبيعتها التقرير والحسم في القرآن كله، أو المبادى ء والتوجيهات، التي قد تتخذ في غير هذه السورة صورا أخرى، ولكنها في هذه السورة تقرر في حسم وصرامة، في أسلوب التقرير الدقيق، وهو الطابع العام المميز لشخصية السورة، من بدئها إلى منتهاها.

إن قول الله سبحانه لهذه الأمة (اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا) يتضمن توحيد المصدر الذي تتلقى منه هذه الأمة منهج حياتها ونظام مجتمعها، وشرائع ارتباطاتها ومصالحها إلى يوم القيامة، كما يتضمن استقرار هذا الدين بكل جزئياته الاعتقادية والتعبدية والتشريعية، فلا تعديل فيها ولا تغيير، فقد اكتمل هذا الدين وتم وانتهى أمره، وتعديل شيء فيه كإنكاره كله، لأنه إنكار لما قرره الله من تمامه وكماله، وهذا الإنكار هو الكفر الذي لا جدال فيه، أما العدول عنه كله إلى منهج آخر، ونظام آخر، وشريعة أخرى، فلا يحتاج منا إلى وصف، فقد وصفه الله سبحانه في السورة، إنما هي الرسالة الأخيرة للبشر، قد اكتملت وتمت، ورضيها الله للناس دينا، فمن شاء أن يبدل، أو يحور، أو يغير أو يطور ! إلى آخر هذه التعبيرات التي تلاك في هذا الزمان، فليبتغ غير الإسلام دينا، (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه).

إن هذا المنهج الإلهي المشتمل على التصور الاعتقادي، والشعائر التعبدية، والشرائع المنظمة لنشاط الحياة كله، يحكم ويصرف ويهيمن على نشاط الحياة كله، وهو يسمح للحياة بأن تنمو في إطاره وترتقي وتتطور، دون خروج على أصل فيه ولا فرع، لأنه لهذا جاء، ولهذا كان آخر رسالة للبشر أجمعين، فإن كل تطور في الحياة كان محسوبا حسابه في ذلك المنهج، لأن الله سبحانه لم يكن يخفي عليه، وهو يضع هذا المنهج في صورته الأخيرة، ويعلن إكماله

وارتضاءه للناس دينا، أن هناك تطورات ستقع، وأن هناك حاجات ستبرز، وما قدر الله حق قدره من يظن غير هذا في أمر من هذه الأمور.

مقدمة سورة الأنعام

هذه السورة مكية، تتحدث ككل القرآن المكي عن قضية واحدة لا تتغير، ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر، هي القضية الكبرى والأساسية في هذا الدين الجديد: **قضية العقيدة**، ممثلة في قاعدتها الرئيسية: الألوهية والعبودية وما بينهما من علاقة.
إنها قضية الإنسان التي لا تتغير، لأنها قضية وجوده في هذا الكون وقضية مصيره، قضية علاقته بهذا الكون وبهؤلاء الأحياء، وقضية علاقته بخالق هذا الكون وخالق هذه الأحياء، وهي قضية لا تتغير لأنها قضية الوجود والإنسان، كانت وستظل القضية الكبرى على توالي الأزمان.
وأصحاب الدعوة إلى دين الله، وإقامة النظام الذي يتمثل فيه هذا الدين في واقع الحياة، خليقون أن يقفوا طويلا أمام هذه الظاهرة الكبيرة، **ظاهرة تصدي القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عاما لتقرير هذه العقيدة، ثم وقوفه عندها لا يتجاوزها** إلى شيء من تفصيلات النظام الذي يقوم عليها، والتشريعات التي تحكم المجتمع المسلم الذي يعتنقها.

كان العرب يعرفون أن **الألوهية تعني الحاكمية العليا**، وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وإفراد الله سبحانه بها، معناه **نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام**، ورده كله إلى الله، السلطان على الضمائر، والسلطان على الشعائر، والسلطان على واقعيات الحياة، السلطان في المال، والسلطان في القضاء، والسلطان في الأرواح والأبدان، كانوا يعلمون أن: "لا إله إلا الله" ثورة على السلطان الأرضي، الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية، وثورة على الأوضاع التي تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب، وخروج على السلطات التي تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله، ولم يكن يغيب عن العرب، وهم يعرفون لغتهم جيدا، ويعرفون المدلول الحقيقي لدعوة: "لا إله إلا الله"، وماذا تعنيه هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ورياساتهم وسلطانهم، ومن ثم استقبلوا هذه الدعوة ـ أو هذه الثورة ـ ذلك الاستقبال العنيف، وحاربوها تلك الحرب التي يعرفها الخاص والعام.

فلم كانت هذه نقطة البدء في هذه الدعوة؟ ولم اقتضت حكمة الله أن تبدأ بكل هذا العناء؟

كان في استطاعته صلى الله عليه وسلم أن يثيرها قومية عربية تستهدف تجميع قبائل العرب، التي أكلتها الثارات، ومزقتها النزاعات، وتوجيهها وجهة قومية لاستخلاص أرضها المغتصبة من الإمبراطوريات المستعمرة، الرومان في الشمال والفرس في الجنوب، وإعلاء راية العربية والعروبة، وإنشاء وحدة قوية في كل أرجاء الجزيرة.

وربما قيل إن محمدا صلى الله عليه وسلم كان خليقا بعد أن يستجيب له العرب هذه الاستجابة، وبعد أن يولوه فيهم القيادة والسيادة، وبعد استجماع السلطان في يديه والمجد فوق مفرقه، أن يستخدم هذا كله في إقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه، وفي تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبدهم لسلطانه.

ولكن الله - سبحانه - وهو العليم الحكيم، لم يوجه رسوله صلى الله عليه وسلم هذا التوجيه، إنما وجهه إلى أن يصدع بلا إله إلا الله، وأن يحتمل هو والقلة التي تستجيب له كل هذا العناء، لأنه سبحانه يعلم **أن ليس هذا هو الطريق، ليس الطريق أن تخلص الأرض من يد طاغوت روماني أو طاغوت فارسي، إلى يد طاغوت عربي، فالطاغوت كله طاغوت.** إن الأرض لله، ويجب أن تخلص لله، ولا تخلص لله إلا أن ترتفع عليها راية "لا إله إلا الله"، ولأن الجنسية التي يريدها الإسلام للناس هي جنسية العقيدة، التي يتساوي فيها العربي والروماني والفارسي وسائر الأجناس والألوان تحت راية الله، وهذا هو الطريق.

وكان في استطاعة محمد صلى الله عليه وسلم أن يرفعها راية اجتماعية، وأن يثيرها حربا على طبقة الأشراف، وأن يطلقها دعوة تستهدف تعديل الأوضاع ورد أموال الأغنياء على الفقراء، وربما قيل إن محمدا صلى الله عليه وسلم كان خليقا بعد أن تستجيب له الكثرة، وتوليه قيادها، فيغلب بها القلة ويسلس له مقادها، وأن يستخدم مكانه يومئذ وسلطانه في إقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه، وفي تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبدهم لسلطانه، لكن الله لم يوجهه هذا التوجيه.

لقد كان الله سبحانه يعلم أن هذا ليس هو الطريق، كان يعلم أن العدالة الاجتماعية لا بد أن تنبثق في المجتمع من تصور اعتقادي شامل، يرد الأمر كله لله، ويقبل عن رضى وعن طواعية ما يقضي به الله من عدالة في التوزيع،

ومن تكافل بين الجميع، ويستقر معه في قلب الآخذ والمأخوذ منه أنه ينفذ نظاما يرضاه الله، يرجو على الطاعة فيه الخير والحسنى في الدنيا والآخرة سواء، فلا تمتلئ قلوب بالطمع، ولا تمتلىء قلوب بالحقد، ولا تسير الأمور كلها بالسيف والعصا، وبالتخويف والإرهاب، ولا تفسد القلوب كلها وتختنق الأرواح، كما يقع في الأوضاع التي نراها قد قامت على غير "لا إله إلا الله".

وكان في استطاعة محمد صلى الله عليه وسلم أن يعلنها دعوة إصلاحية، تتناول تقويم الأخلاق، وتطهير المجتمع، وتزكية النفوس، وتعديل القيم والموازين، وربما قال قائل إنه لو صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فاستجابت له في أول الأمر جمهرة صالحة، تتطهر أخلاقها، وتزكو أرواحها، فتصبح أقرب إلى قبول العقيدة وحملها، بدلا من أن تثير دعوة أن لا إله إلا الله المعارضة القوية منذ أول الطريق، ولكن الله سبحانه وهو العليم الحكيم، لم يوجه رسوله صلى الله عليه وسلم إلى مثل هذا الطريق.
لقد كان الله سبحانه يعلم أن ليس هذا هو الطريق، كان يعلم أن الأخلاق لا تقوم إلا على أساس من عقيدة، تضع الموازين، وتقرر القيم، وتقرر السلطة التي ترتكن إليها هذه الموازين والقيم، كما تقرر الجزاء الذي تملكه هذه السلطة وتوقعه على الملتزمين والمخالفين، وأنه قبل تقرير تلك العقيدة تظل القيم كلها متأرجحة، وتظل الأخلاق التي تقوم عليها متأرجحة كذلك، بلا ضابط، وبلا سلطان، وبلا جزاء.

فلما تقررت العقيدة، بعد الجهد الشاق، وتقررت السلطة التي ترتكن إليها هذه العقيدة، ولما عرف الناس ربهم وعبدوه وحده، ولما تحرر الناس من سلطان العبيد، ومن سلطان الشهوات سواء، لما تقررت في القلوب "لا إله إلا الله" صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون، **تطهرت الأرض من الرومان والفرس،** لا ليتقرر فيها سلطان العرب، ولكن ليتقرر فيها سلطان الله، لقد تطهرت من الطاغوت كله: رومانيا وفارسيا وعربيا على السواء، **وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملته،** وقام النظام الإسلامي يعدل بعدل الله، ويزن بميزان الله، ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده، **وتطهرت النفوس والأخلاق،** وزكت القلوب والأرواح، دون أن يحتاج الأمر إلى الحدود والتعازير التي شرعها الله، إلا في الندرة النادرة، لأن الرقابة

قامت هنالك في الضمائر، ولأن الطمع في رضى الله وثوابه، والحياء والخوف من غضبه وعقابه، قد قامت كلها مقام الرقابة ومقام العقوبات.
وارتفعت البشرية في نظامها، وفي أخلاقها، وفي حياتها كلها، إلى القمة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط، والتي لم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل الإسلام.
ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام، كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم، في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك، وكانوا قد وعدوا على إقامة هذا الدين وعدا واحدا هو الجنة.

فلما أن ابتلاهم الله فصبروا، ولما أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم، ولما أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاءا في هذه الأرض، كائنا ما كان هذا الجزاء، ولو كان هو انتصار هذه الدعوة على أيديهم، وقيام هذا الدين في الأرض بجهدهم، ولما لم يعد في نفوسهم اعتزاز بجنس ولا قوم، ولا اعتزاز بوطن ولا أرض، ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت، لما أن علم الله منهم ذلك كله، علم أنهم قد أصبحوا إذن أمناء على هذه الأمانة الكبرى، أمناء على العقيدة التي يتفرد فيها الله سبحانه بالحاكمية في القلوب والضمائر وفي السلوك والشعائر، وفي الأرواح والأموال، وفي الأوضاع والأحوال، وأمناء على السلطان الذي يوضع في أيديهم ليقوموا به على شريعة الله ينفذونها، وعلى عدل الله يقيمونه، دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شيء لأنفسهم ولا لعشيرتهم ولا لقومهم ولالجنسهم، إنما يكون السلطان الذي في أيديهم لله ولدينه وشريعته، لأنهم يعلمون أنه من الله، هو الذي آتاهم إياه.
وما كان هذا المنهج المبارك ليخلص لله، لو أن الدعوة بدأت خطواتها الأولى دعوة قومية، أو دعوة اجتماعية، أو دعوة أخلاقية، أو رفعت أي شعار إلى جانب شعارها الواحد "لا إله إلا الله".

فأما شأن هذا القرآن في تناول قضية الاعتقاد وحدها، دون التطرق إلى تفصيلات النظام الذي يقوم عليها، والشرائع التي تنظم المعاملات فيها، فذلك كذلك مما ينبغي أن يقف أمامه أصحاب الدعوة لهذا الدين وقفة واعية، إن طبيعة هذا الدين هي التي قضت بهذا.

إن نظامه يتناول الحياة كلها، ويتولى شؤون البشرية كبيرها وصغيرها، وينظم حياة الإنسان لا في هذه الحياة الدنيا وحدها، ولكن كذلك في الدار الآخرة، ولا في عالم الشهادة وحده ولكن كذلك في عالم الغيب المكنون عنها، ولا في المعاملات الظاهرة المادية، ولكن في أعماق الضمير ودنيا السرائر والنوايا، فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة مترامية، ولا بد له إذن من جذور وأعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار أيضا.
ومتى استقرت عقيدة "لا إله إلا الله" في أعماقها الغائرة البعيدة، استقر معها في نفس الوقت النظام الذي تتمثل فيه "لا إله إلا الله"، وتعين أنه النظام الوحيد الذي ترتضيه النفوس التي استقرت فيها العقيدة، واستسلمت هذه النفوس ابتداء لهذا النظام حتى قبل أن تعرض عليها تفصيلاته، وقبل أن تعرض عليها تشريعاته، **فالاستسلام ابتداء هو مقتضى الإيمان**، وبمثل هذا الاستسلام تلقت النفوس تنظيمات الإسلام وتشريعاته بالرضى والقبول، لا تعترض على شيء منه فور صدوره إليها ولا تتلكأ في تنفيذه بمجرد تلقيها له، وهكذا أبطلت الخمر، وأبطل الربا، وأبطل الميسر، وأبطلت العادات الجاهلية كلها، أبطلت بآيات من القرآن، أو كلمات من رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما الحكومات الأرضية تجهد في شيء من هذا كله بقوانينها وتشريعاتها ونظمها وأوضاعها، وجندها وسلطانها، ودعايتها وإعلامها، فلا تبلغ إلا أن تضبط الظاهر من المخالفات، بينما المجتمع يعج بالمنهيات والمنكرات.

وجانب آخر من طبيعة هذا الدين يتجلى في هذا المنهج القويم، **إن هذا الدين منهج عملي حركي جاد، جاء ليحكم الحياة في واقعها**، ويواجه هذا الواقع ليقضي فيه بأمره، يقره أو يعدله أو يغيره من أساسه، ومن ثم فهو لا يشرع إلا لحالات واقعة فعلا، في مجتمع يعترف ابتداء بحاكمية الله وحده.
إنه ليس نظرية تتعامل مع الفروض، إنه منهج يتعامل مع الواقع، **فلابد أولا أن يقوم المجتمع المسلم الذي يقر عقيدة أن لا إله إلا الله، وأن الحاكمية ليست إلا لله، ويرفض أن يقر بالحاكمية لأحد من دون الله، ويرفض شرعية أي وضع لا يقوم على هذه القاعدة**، وحين يقوم هذا المجتمع فعلا، تكون له حياة واقعية، تحتاج إلى تنظيم وإلى تشريع ، وعندئذ فقط يبدأ هذا الدين في تقرير النظم وفي سن الشرائع، لقوم مستسلمين أصلا للنظم والشرائع، رافضين ابتداء لغيرها من النظم والشرائع.

ولا بد أن يكون للمؤمنين بهذه العقيدة من السلطان على أنفسهم وعلى مجتمعهم ما يكفل تنفيذ النظام والشرائع في هذا المجتمع، حتى تكون للنظام هيبته ويكون للشريعة جديتها، فوق ما يكون لحياة هذا المجتمع من الواقعية ما يقتضي الأنظمة والشرائع من فورها.
والمسلمون في مكة لم يكن لهم سلطان على أنفسهم ولا على مجتمعهم، وما كانت لهم حياة واقعية مستقلة هم الذين ينظمونها بشريعة الله، ومن ثم لم ينزل الله في هذه الفترة تنظيمات وشرائع، وإنما نزل لهم عقيدة، وخلقا منبثقا من العقيدة بعد استقرارها في الأعماق البعيدة، فلما صارت لهم دولة في المدينة ذات سلطان تنزلت عليهم الشرائع، وتقرر لهم النظام، الذي يواجه حاجات المجتمع المسلم الواقعية، والذي تكفل له الدولة بسلطانها الجدية والنفاذ.

والذين يريدون من الإسلام اليوم أن يصوغ قوالب نظام، وأن يصوغ تشريعات حياة، بينما ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلا تحكيم شريعة الله وحدها، ورفض كل شريعة سواها، مع تملكه للسلطة التي تفرض هذا وتنفذه، الذين يريدون من الإسلام ذلك لا يدركون طبيعة هذا الدين، ولا كيف يعمل في الحياة، كما يريد له الله، إنهم يريدون منه أن يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ليشابه أنظمة بشرية، ومناهج بشرية، ويحاولون أن يستعجلوه عن طريقه وخطواته ليلبي رغبات وقتية في نفوسهم، إنما تنشئها الهزيمة الداخلية في أرواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة.
كذلك يجب أن يكون مفهوما لأصحاب الدعوة الإسلامية، أنهم **حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين، يجب أن يدعوهم أولا إلى اعتناق العقيدة، حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين**، يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولا إقرار عقيدة لا إله إلا الله بمدلولها الحقيقي، وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم، إقرارها في ضمائرهم وشعائرهم، وإقرارها في أوضاعهم وواقعهم، فإذا دخل في هذا الدين، بمفهومه هذا الأصيل، عصبة من الناس، فهذه العصبة هي التي تصلح لمزاولة النظام الإسلامي في حياتها الاجتماعية.

وحين يقوم هذا المجتمع بالفعل يبدأ عرض أسس النظام الإسلامي عليه، كما يأخذ هذا المجتمع نفسه في سن التشريعات التي تقتضيها حياته الواقعية، في إطار الأسس العامة للنظام الإسلامي، فهذا هو الترتيب الصحيح لخطوات

المنهج الإسلامي الواقعي العملي الجاد، ولقد يخيل إلى بعض المخلصين المتعجلين أن عرض أسس النظام الإسلامي، بل التشريعات الإسلامية كذلك، على الناس مما ييسر لهم طريق الدعوة، ويحبب الناس في هذا الدين، وهذا وهم تنشؤه العجلة، إن النفوس يجب أن تخلص أولا لله، وتعلن عبوديتها له، بقبول شرعه وحده ورفض كل شرع غيره من ناحية المبدأ، قبل أن تخاطب بأي تفصيل عن ذلك الشرع يرغبها فيه.

إن قاعدة الدعوة أن قبول شرع الله وحدة ورفض كل شرع غيره هو ذاته الإسلام، وليس للإسلام مدلول سواه، فمن رغب في الإسلام فقد فصل في هذه القضية، ولم يعد بحاجة إلى ترغيبه بجمال النظام وأفضليته، فهذه إحدى بديهيات الإيمان.

كان القرآن وهو يبني العقيدة في ضمائر الجماعة المسلمة يخوض بهذه الجماعة المسلمة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها، كما يخوض بها معركة ضخمة مع رواسب الجاهلية في ضميرها وأخلاقها وواقعها، ومن هذه الملابسات ظهر بناء العقيدة، لا في صورة نظرية، ولا في صورة لاهوت ولا في صورة جدل كلامي، ولكن في صورة تكوين تنظيمي مباشر للحياة، ممثل في الجماعة المسلمة ذاتها، وكان نمو الجماعة المسلمة في تصورها الاعتقادي، وفي سلوكها الواقعي وفق هذا التصور، وفي دربتها على مواجهة الجاهلية كمنظمة محاربة لها، كان هذا النمو ذاته ممثلا تماما لنمو البناء العقيدي، وترجمة حية له، وهذا هو منهج الإسلام الذي يمثل طبيعته كذلك، فإن مرحلة بناء العقيدة التي طالت في العهد المكي على هذا النحو، لم تكن منعزلة عن مرحلة التكوين العملي للحركة الإسلامية، والبناء الواقعي للجماعة المسلمة، لم تكن مرحلة تلقي النظرية ودراستها، **ولكنها كانت مرحلة البناء القاعدي للعقيدة وللجماعة وللحركة وللوجود الفعلي معا، وهكذا ينبغي أن تكون كلما أريد إعادة هذا البناء مرة أخرى.**

هكذا ينبغي أن تطول مرحلة بناء العقيدة، وألا تكون مرحلة دراسة نظرية للعقيدة، ولكن مرحلة ترجمة لهذه العقيدة في صورة حية، متمثلة في ضمائر متكيفة بهذه العقيدة، ومتمثلة في بناء جماعي يعبر نموه عن نمو العقيدة ذاتها،

ومتمثلة في حركة واقعية تواجه الجاهلية وتخوض معها المعركة في الضمير وفي الواقع كذلك، لتتمثل العقيدة حية وتنمو نموا حيا في خضم المعركة.
إن القرآن لم يقض ثلاثة عشر عاما كاملة في بناء العقيدة بسبب أنه كان يتنزل للمرة الأولى، كلا، فلو أراد الله لأنزل هذا القرآن جملة واحدة، ثم ترك أصحابه يدرسونه ثلاثة عشر عاما أو أكثر أو أقل، حتى يستوعبوا النظرية الإسلامية، ولكن الله سبحانه كان يريد أمراً آخر، كان يريد منهجا معينا متفردا، **كان يريد بناء الجماعة وبناء الحركة وبناء العقيدة في وقت واحد، كان يريد أن يبني الجماعة والحركة بالعقيدة، وأن يبني العقيدة بالجماعة والحركة،** كان يريد أن تكون العقيدة هي واقع الجماعة الفعلي، وأن يكون واقع الجماعة الحركي الفعلي هو صورة العقيدة، حتى إذا نضج التكوين العقيدي كانت الجماعة هي المظهر الواقعي لهذا النضوج.
هذه هي طبيعة هذا الدين كما تستخلص من منهج القرآن المكي، إن العقيدة الإسلامية يجب أن تتمثل في نفوس حية، وفي تنظيم واقعي، وفي حركة تتفاعل مع الجاهلية من حولها، كما تتفاعل مع الجاهلية الراسبة في نفوس أصحابها، وهي في صورتها هذه تشغل من القلوب والعقول ومن الحياة أيضا مساحة أضخم وأوسع وأعمق مما تشغله النظرية، وتشمل فيما تشمل مساحة النظرية ومادتها، ولكنها لا تقتصر عليها.

وكل نمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي، ولا يتمثل من خلاله، هو خطأ وخطر كذلك بالقياس إلى طبيعة هذا الدين، وغايته، وطريقة تركيبه الذاتي.
(وقرآنا فرقناه، لتقرأه على الناس على مكث، ونزلناه تنزيلًا)، فالفرق مقصود، والمكث مقصود كذلك، ليتم البناء التكويني المؤلف من عقيدة في صورة منظمة حية، لا في صورة نظرية معرفية، فيجب أن يعرف أصحاب هذا الدين جيدا، أنه **كما أن هذا الدين دين رباني، فإن منهجه في العمل منهج رباني كذلك، متواف مع طبيعته، وأنه لا يمكن فصل حقيقة هذا الدين عن منهجه في العمل،** ويجب أن يعرفوا كذلك أن هذا الدين كما أنه جاء ليغير التصور الاعتقادي، ومن ثم يغير الواقع الحيوي، فكذلك هو قد جاء ليغير المنهج الفكري والحركي الذي يبني به التصور الاعتقادي، ويغير به الواقع الحيوي، **جاء ليبني عقيدة وهو يبني أمة، ثم لينشيء منهج تفكير خاصا به بنفس الدرجة التي ينشيء بها تصورا اعتقاديا وواقعا حيويا، ولا انفصال بين منهج تفكيره الخاص وتصوره الاعتقادي وبنائه الحيوي، فكلها حزمة واحدة.**

فإذا عرفنا منهجه في العمل على النحو الذي بيناه، فلنعرف أن **هذا المنهج أصيل، وليس منهج مرحلة ولا بيئة ولا ظروف خاصة بنشأة الجماعة المسلمة الأولى، إنما هو المنهج الذي لا يقوم بناء هذا الدين إلا به**، إنه لم تكن وظيفة الإسلام أن يغير عقيدة الناس وواقعهم فحسب، ولكن كانت وظيفته أن يغير طريقة تفكيرهم، وتناولهم للتصور وللواقع، ونحن لا نملك أن نصل إلى التصور الرباني والحياة الربانية إلا عن طريق منهج تفكير رباني كذلك، ونحن حين نريد من الإسلام أن يجعل من نفسه نظرية للدراسة نخرج عن طبيعة المنهج الرباني للتكوين، وعن طبيعة المنهج الرباني للتفكير، ونخضع الإسلام لطرائق التفكير البشرية، والأمر من هذه الناحية يكون خطيرا، والهزيمة تكون قاتلة.
إن وظيفة المنهج الرباني أن يعطينا، نحن أصحاب الدعوة الإسلامية، منهجا خاصا للتفكير نبرأ به من رواسب مناهج التفكير الجاهلية السائدة في الأرض، والتي تضغط على عقولنا وتترسب في ثقافتنا، إن منهج التفكير والحركة في بناء الإسلام، لا يقل قيمة ولا ضرورة عن منهج التصور الاعتقادي والنظام الحيوي، ولا ينفصل عنه كذلك، ويجب ألا يغيب عن بالنا أنه لن يفيد من تقديمنا الإسلام في هذه الصورة إلا المشتغلون فعلا بحركة إسلامية واقعية.

إن الجاهلية التي حولنا كما أنها تضغط على أعصاب بعض المخلصين من أصحاب الدعوة الإسلامية فتجعلهم يستعجلون خطوات المنهج الإسلامي، كذلك هي تتعمد أحيانا أن تحرجهم فتسألهم: **أين تفصيلات نظامكم الذي تدعون إليه؟** وماذا أعددتم لتنفيذه من بحوث ومن تفصيلات ومن مشروعات؟، ومن واجب أصحاب الدعوة الإسلامية ألا يستجيبوا للمناورة، من واجبهم أن يرفضوا إملاء منهج غريب على حركتهم وعلى دينهم، من واجبهم ألا يستخفهم من لا يوقنون، **ومن واجبهم أن يكشفوا مناورة الإحراج وأن يستعلوا عليها، وأن يتحركوا بدينهم وفق منهج هذا الدين في الحركة**، فهذا من أسرار قوته، وهذا هو مصدر قوتهم كذلك، إن المنهج في الإسلام يساوي الحقيقة، ولا انفصام بينهما، وكل منهج غريب لا يمكن أن يحقق الإسلام في النهاية، والمناهج الغربية الغريبة يمكن أن تحقق أنظمتها البشرية، ولكنها لا يمكن أن

تحقق نظامنا الرباني، فالتزام المنهج ضروري كالتزام العقيدة وكالتزام النظام في كل حركة إسلامية، لا في الحركة الإسلامية الأولى كما يظن بعض الناس.

هذه السورة نموذج كامل للقرآن المكي الذي تحدثنا عن طبيعته وخصائصه ومنهجه، وتعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة، فإن الروعة فيها تبلغ فعلا حد البهر، حتى لا يملك القلب أن يتابعها إلا مبهورا مبدوها.
وهي تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات والصور والظلال مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة، ما تكاد الموجة تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها، متشابكة معها، في المجرى المتصل المتدفق.

والحياة في جو القرآن لا تعني مدارسة القرآن، وقراءته والاطلاع على علومه، إن هذا ليس "جو القرآن" الذي نعنيه، إن الذي نعنيه بالحياة في جو القرآن هو أن يعيش الإنسان في جو، وفي ظروف، وفي حركة، وفي معاناة، وفي صراع، وفي اهتمامات، كالتي كان يتنزل فيها هذا القرآن، أن يعيش الإنسان في مواجهة هذه الجاهلية التي تعم وجه الأرض اليوم، وفي قلبه، وفي همه، وفي حركته، أن "ينشىء" الإسلام في نفسه وفي نفوس الناس، وفي حياته وفي حياة الناس، مرة أخرى في مواجهة هذه الجاهلية، بكل تصوراتها، وكل اهتماماتها وكل تقاليدها، وكل واقعها العملي، وكل ضغطها كذلك عليه، وحربها له، ومناهضتها لعقيدته الربانية، ومنهجه الرباني، وكل استجاباتها كذلك لهذا المنهج ولهذه العقيدة، بعد الكفاح والجهاد والإصرار.

هذا هو الجو القرآني الذي يمكن أن يعيش فيه الإنسان، فيتذوق هذا القرآن، فهو في مثل هذا الجو نزل، وفي مثل هذا الخضم عمل، والذين لا يعيشون في مثل هذا الجو معزولون عن القرآن مهما استغرقوا في مدارسته وقراءته والاطلاع على علومه، والمحاولة التي نبذلها لإقامة القنطرة بين المخلصين من هؤلاء وبين القرآن، ليست بالغة شيئا، إلا بعد أن يجتاز هؤلاء القنطرة، ويصلوا إلى المنطقة الأخرى، ويحاولوا أن يعيشوا في "جو القرآن" حقا بالعمل والحركة، وعندئذ فقط سيتذوقون هذا القرآن، ويتمتعون بهذه النعمة التي ينعم الله بها على من يشاء.

هكذا تطوف السورة بالقلب البشري في هذه الآماد والآفاق، وفي هذه الأغوار والأعماق، تهدف إلى تعريف الناس بربهم الحق، لتصل من هذا التعريف إلى تعبيد الناس لربهم الحق، تعبيد ضمائرهم وأرواحهم، وتعبيد سعيهم وحركتهم، وتعبيد تقاليدهم وشعائرهم، وتعبيد واقعهم كله لهذا السلطان المتفرد، سلطان الله الذي لا سلطان لغيره في الأرض ولا في السماء، ويكاد اتجاه السورة كله يمضي إلى هذا الهدف المحدد من أولها إلى آخرها، فالله هو الخالق، والله هو الرازق، والله هو المالك، والله هو صاحب القدرة والقهر والسلطان، والله هو العليم بالغيوب والأسرار، والله هو الذي يقلب القلوب والأبصار كما يقلب الليل والنهار، وكذلك يجب أن يكون الله هو الحاكم في حياة العباد، وألا يكون لغيره نهى ولا أمر، ولا شرع ولا حكم، ولا تحليل ولا تحريم، فهذا كله من خصائص الألوهية، ولا يجوز أن يزاوله في حياة الناس أحد من دون الله، لا يخلق، ولا يرزق، ولا يحيي ولا يميت، ولا يضر ولا ينفع، ولا يمنح ولا يمنع، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا في الدنيا ولا في الآخرة.

وسياق السورة يسوق على هذه القضية أدلته في تلك المشاهد والمواقف والإيقاعات البالغة حد الروعة الباهرة، والتي تواجه القلب بالحشود الحاشدة من المؤثرات الموحية، من كل درب ومن كل باب، ولكن المناسبة الحاضرة في حياة الجماعة المسلمة حينذاك، المناسبة التطبيقية لهذه القاعدة الكبيرة الشاملة، هي ما تزاوله الجاهلية من حق التحليل والتحريم في الذبائح والمطاعم، ومن حق تقرير بعض الشعائر في النذور من الذبائح والثمار والأولاد، وهي المناسبة التي تتحدث عنها هذه الآيات في أواخر السورة: (118-121)، (136-140)، وهي المناسبة التي تتمثل فيها قضية حق التشريع، وربطها بقضية العقيدة كلها، قضية الألوهية والعبودية، وجعلها مسألة إيمان أو كفر، ومسألة إسلام أو جاهلية، مما يوقع في النفس تلك الحقيقة الأصيلة في طبيعة هذا الدين، وهي أن كل جزئية صغيرة في الحياة الإنسانية يجب أن تخضع خضوعا مطلقا لحاكمية الله المباشرة، الممثلة في شريعته، وإلا فهو الخروج من هذا الدين جملة من أجل الخروج على حاكمية الله المطلقة في تلك الجزئية الصغيرة، كذلك يدل ذلك الحشد على مدى الأهمية التي ينوطها هذا الدين بتخليص مظهر الحياة كله من ظلال حاكمية البشر في أي شأن من شؤون البشر، جل أم حقر، كبر أم صغر، وربط أي شأن من هذه الشؤون

بالأصل الكبير الذي يتمثل فيه هذا الدين، وهو حاكمية الله المطلقة التي تتمثل فيها ألوهيته في الأرض، كما تتمثل ألوهيته في الكون كله بتصريف أمر هذا الكون كله بلا شريك.
وهناك روايات أن هذه السورة مكية وأنها نزلت جملة واحدة، وليس في هذه الروايات ما يعين تاريخ نزول السورة، وليس في موضوعها كذلك ما يحدد زمن نزولها من العهد المكي، والموضوع الرئيسي الذي تعالجه متصل، فلا يمكن تجزئة السورة إلى مقاطع، كل مقطع منها يعالج جانبا من الموضوع، إنما هي موجات، وكل موجة تتفق مع التي قبلها وتكملها.

تبدأ السورة بمواجهة المشركين، الذين يتخذون مع الله آلهة أخرى، ثلاث آيات تذرع الوجود الكوني كله في الآية الأولى، وتذرع الوجود الإنساني كله في الآية الثانية، ثم تحيط الألوهية بالوجودين كليهما في الآية الثالثة، أي إعجاز، وأية روعة، وأي شمول، وأية إحاطة.
وفي هذه اللحظة تبدأ **الموجة التالية** تعرض موقف المكذبين بآيات الله هذه المبثوثة في الكون والحياة، ومع عرض الموقف المنكر الغريب، يجيء التهديد، وتعرض مصارع الغابرين، ويتجلى السلطان القاهر الذي تدل عليه هذه المصارع، وهذه القوارع، فيبدو عجيبا منكرا تعنت المنكرين أمام هذا الحق المبين (4-11).
ومن هنا تبدأ **موجة ثالثة** في التعريف بحقيقة الألوهية، متجلية في ملكية الله سبحانه لما في السماوات وما في الأرض، ولما سكن بالليل والنهار، ومتجلية في كونه الرازق الذي يطعم ولا يطعم، فهو من ثم الولي الذي لا ولي غيره، الذي يجب أن يسلم العبيد أنفسهم إليه وحده، وهو الذي يعذب العصاة في الآخرة، وهو الذي يملك الضر والخير، وهو على كل شيء قدير، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير، وتبلغ الموجة قمتها بعد هذا التمهيد كله، في الإشهاد والمفاصلة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين القوم، وإنذارهم والتبرؤ من شركهم، وإعلان التوحيد في مواجهتهم، في رنة عالية فاصلة جازمة (12-19).
ثم تبدأ **موجة رابعة** تتحدث عن معرفة أهل الكتاب لهذا الكتاب الجديد الذي يكذب به المشركون، وتصف هذا الشرك بأنه أظلم الظلم، وتقف المشركين أمام مشهدهم يوم الحشر وهم يسألون عن شركائهم فينكرون الشرك ويذهب عنهم الافتراء (20-32).

ثم تبدأ **موجة خامسة**، يلتفت فيها السياق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسليه ويسري عنه ما يحزنه من تكذيبهم له ولما جاءهم من عند الله به، ويجعل له أسوة في الرسل قبله ممن صبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله، ويقرر أن سنة الله لا تتبدل، ولكنها كذلك لا تستعجل (33-36).

في موقف الإشهاد والمفاصلة، حيث تتجلى تلك الحقيقة في القلب المؤمن بها، وحيث يواجه بها المخالفين، ويصدع بها في قوة وفي يقين (14-19).
وفي موقف التهديد، حيث يتجلى سلطان الله محيطا بالعباد، وتتعرى أمامه الفطرة ويسقط عنها الركام، وتتجه إلى ربها الحق وحده وتنسى الآلهة الزائفة، أمام الهول، وأمام مصارع المكذبين (40-47).
وفي موقف التعريف بإحاطة الله بالغيوب والأسرار، والأنفاس والأعمار، مع القدرة والقهر والسيطرة في البر والبحر، والنهار والليل، والدنيا والأخرة، والحياة والممات (59-62).
وفي موقف شهادة الفطرة، واهتدائها الذاتي إلى ربها الحق، بمجرد تفتحها لاستقبال دلائل الهدى وموحياته في صفحات الكون، التي تخاطب الفطرة بلسان مفهوم الإيقاع في أعماقها المكنونة (74-82).
وفي مشهد الحياة النابضة في الفصائل والأنواع، ومشهد الإصباح والإمساء، ومشهد النجوم والظلمات في البر والبحر، ومشهد الماء الهاطل، والزرع النامي، والثمر اليانع . . حيث تتجلى وحدانية الخالق بلا شريك، المبدع بلا شبيه، وحيث تبدو دعوى الشركاء والأبناء سخفا تنكره العقول والقلوب (95-103).
وأخيرا في موقف الابتهال والإنابة إلى الله الواحد بلا شريك، والتجرد له صلاة ونسكا، ومحيا ومماتا، واستنكار ابتغاء غيره ربا وهو رب كل شيء، ورد الأمر إليه كله في الدنيا في أمر الاستخلاف والابتلاء، وفي الآخرة في أمر الحساب والجزاء، حيث تختم السورة بهذا الابتهال الخاشع المنيب (161-165).

إن سياق السورة يعرض المشاهد والمواقف منوعة، ولكنها تلتقي في ظاهرة واحدة، إنه في كل مشهد أو موقف، كأنما يأخذ بالسامع ليقفه أمام المشهد يتملاه، وأمام المواقف يتدبره، يقفه أمامه بحركة تكاد الألفاظ تجسمها، كما أن المشاهد والمواقف ذاتها فيها ناس موقوفون، يراهم السامع في وقفتهم، والسياق يقفه

هو الآخر ليشاهدهم ويتملاهم، في مشاهد القيامة ومشاهد الاحتضار، وفي مواقف التهديد ببطش الله وأخذ المكذبين بسلطانه الذي لا يرد، وفي تمثيل حالة الضلال بعد الهدى، والرجوع عن الحق بعد الاهتداء إليه، يرسم مشهدا شاخصا يقف السامع أمامه يتملاه، وكذلك مشهد الثمار اليانعة في الجنات التي تتمثل فيها الحياة، والتي تتجلى فيها يد الله المبدعة للألوان والثمار.

إن القضية هي قضية العقيدة، وإن الالتزام فيها هو المضي على صراط الله، وإن الانحراف فيها هو الخروج عن هذا الصراط، وإنها قضية إيمان أو كفر، وجاهلية أو إسلام.

مقدمة سورة الأعراف

سورة الأعراف **سورة مكية تعالج موضوع العقيدة، تعرضه في مجال التاريخ البشري،** في مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها، إنها رحلة طويلة طويلة، ولكن السورة تقطعها مرحلة مرحلة، وتقف منها عند معظم المعالم البارزة، في الطريق المرسوم، ملامحه واضحة، ومعالمه قائمة، ومبدؤه معلوم، ونهايته مرسومة، والبشرية تخطو فيه بجموعها الحاشدة، ثم تقطعه راجعة، إلى حيث بدأت رحلتها في الملأ الأعلى، حتى إذا عادت إلى نقطة المنطلق وضع كل منها حمله أمام الميزان، ووقف يرتقب في خشية ووجل، إن كل فرد قد عاد بحصيلته فرداً، (وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى)، وكل فرد على حدة يلاقي حسابه، ويلقى جزاءه.

وبين الغدو والرواح تعرض معارك الحق والباطل، معارك الهدى والضلال، معارك الرهط الكريم من الرسل والموكب الكريم من المؤمنين، مع الملأ المستكبرين والأتباع المستخفين، ويعرض الصراع المتكرر، والمصائر المتشابهة، وتتجلي صحائف الإيمان في إشراقها ووضاءتها، وصحائف الضلال في انطماسها وعتامتها، وتعرض مصارع المكذبين بين الحين والحين، حيث يقف السياق عليها للتذكير والتحذير.
إن السورة لا تعرض قصة هذه العقيدة في التاريخ البشري، ولا تعرض رحلة البشرية منذ نشأتها الأولى إلى عودتها الأخيرة، مجرد عرض في أسلوب قصصي، إنما هي **تعرضها في صورة معركة مع الجاهلية، ومن ثم فإنها تعرضها في مشاهد ومواقف،** وتواجه بهذه المشاهد والمواقف ناساً أحياء كانوا يواجهون هذا القرآن، فيواجههم هذا القرآن بتلك القصة الطويلة، ويخاطبهم بما فيها من عبر، مذكرا ومنذرا، ويخوض معهم معركة حقيقية حية، **إن القرآن لا يقص قصة إلا ليواجه بها حالة، ولا يقرر حقيقة إلا ليغير بها باطلا، إنه**

يتحرك حركة واقعية حية في وسط واقعي حي، إنه لا يقرر حقائقه للنظر المجرد، ولا يقص قصصه لمجرد المتاع الفني.
(كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه).
يصور حالة واقعية لا يمكن أن يدركها اليوم إلا الذي يعيش في جاهلية وهو يدعو إلى الإسلام، ويعلم أنه إنما يستهدف أمراً هائلاً ثقيلاً، دونه صعاب جسام، يستهدف إنشاء عقيدة وتصور، وقيم وموازين، وأوضاع وأحوال مغايرة تمام المغايرة لما هو كائن في دنيا الناس، ويجد من رواسب الجاهلية في النفوس، ومن تصورات الجاهلية في العقول، ومن قيم الجاهلية في الحياة، ومن ضغوطها في الأوضاع والأعصاب، **ما يحس معه أن كلمة الحقيقة التي يحملها، غريبة على البيئة، ثقيلة على النفوس، مستنكرة في القلوب، كلمة ذات تكاليف بقدر ما تعنيه من الانقلاب الكامل لكل ما يعهده الناس في جاهليتهم من التصورات والأفكار، والقيم والموازين، والشرائع والقوانين، والعادات والتقاليد، والأوضاع والارتباطات، ومن ثم يجد في صدره هذا الحرج من مواجهة الناس بذلك الحق الثقيل**، الحرج الذي يدعو الله - سبحانه - نبيه صلى الله عليه وسلم ألا يكون في صدره شيء منه، وأن يمضي بالحق ينذر ويذكر، ولا يحفل ما تواجهه كلمة الحق من دهشة واستنكار، ومن مقاومة كذلك وحرب وعناء، ولأن الأمر كذلك من الثقل ومن الغرابة ومن النفرة ومن المقاومة لهذا التغيير الكامل الشامل الذي تستهدفه هذه العقيدة في حياة الناس وتصوراتهم، فإن السياق يباكر القوم بالتهديد القاصم، ويذكرهم بمصائر المكذبين، ويعرض عليهم مصارع الغابرين، جملة قبل أن يأخذ في القصص المفصل عنهم في مواضعه من السياق.

وبعد هذه المقدمة تبدأ القصة، تبدأ بالحديث عن التمكين للجنس البشري في الأرض، وذلك بما أودع الله هذا الكون من خصائص وموافقات تسمح بحياة هذا الجنس وتمكينه في الأرض، وبما أودع الله هذا الجنس من خصائص وموافقات متوافقة مع الكون، ومن قدرة على التعرف إلى نواميسه واستخدامها، والانتفاع بطاقاته ومقدراته ومدخراته وأقواته (ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون)، **وليس هذا إلا التمهيد لعرض قصة النشأة الأولى**، وتصوير نقطة الانطلاق التي بدأت منها البشرية رحلتها المرسومة، والسياق يركز في هذه السورة على هذه النقطة، ويعرض

قصة النشأة، ويتخذها كذلك نقطة تعقيب للإنذار والتذكير، المستمدين مما في مشاهدها وأحداثها من عظات موحية، ومؤثرات عميقة.
وبهذا المشهد في نقطة الانطلاق يتحدد مصير الرحلة كلها، ومصائر المرتحلين جميعا، **وتلوح طلائع المعركة الكبرى التي لا تهدأ لحظة طوال الرحلة، بين هذا العدو الجاهر بالعداوة، وبني آدم جميعا، كما تلوح نقط الضعف في الكائن الإنساني جملة، ومنافذ الشيطان إليه منها،** ومن ثم يتخذ السياق من المشهد مناسبة للتعقيب الطويل، بالإنذار والتحذير، تحذير بني آدم مما جرى لأبويهم من هذا العدو العنيد، ولا بد أن نلحظ أن مشهد العري بعد ارتكاب المحظور، والخصف من ورق الجنة، إنما يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي العربي المشرك، حيث كانوا تحت تأثير أساطير وتقاليد معينة يطوفون بالبيت عرايا، ويحرمون أنواعاً من الثياب، وأنواعا من الطعام في فترة الحج، ويزعمون أن هذا من شرع الله، أليست سمة كل جاهلية هي التعري والكشف وقلة الحياء من الله وقلة التقوى.
إنه حتى القصص في القرآن لا يسرد إلا لمواجهة حالة واقعة بالفعل، فالقاعدة الهامة هي أن المنهج القرآني لا يعرض شيئاً لا تستدعيه حالة واقعة، إنه لا يعرف اختزان المعلومات والأحكام، ولا حتى القصص، إلى أن يجيء وقت الحاجة الواقعة إليها.

ويبادر القرآن بتصوير مشهد النهاية، نهاية المرحلة الكبرى، وذلك على طريقة القرآن الغالبة في عرض الرحلة بشطريها في دار الابتلاء وفي دار الجزاء، كأنما هي رحلة متصلة ممدودة، وهنا نجد أطول مشهد من مشاهد القيامة، وأكثرها تفصيلاً، وأحفلها بالمناظر المتتابعة والحوار المتنوع، والمشهد طويل لا نملك إثباته هنا في هذا التعريف المجمل.
وبعد تلك الرحلة الواسعة الآماد، من المنشأ إلى المعاد، يقف السياق ليعقب عليها، مقرراً "حقيقة الألوهية " و"حقيقة الربوبية " في مشاهد كونية، تشهد بهذه الحقيقة، وهي أن هذا الكون بجملته يدين بالعبودية لله وحده، فالله هو ربه وحاكمه، فأولى بالإنسان أن لا يكون نشازاً في لحن الوجود المؤمن، وألا يشذ عن العبودية لرب هذا الكون الذي له الخلق والأمر، وهو رب العالمين (54-58).
والآن تمضي الرحلة، وتجري القصة، **ويبرز الموكب الإيماني الجليل، يهتف بالبشرية الضالة، يذكرها وينذرها، ويحذرها سوء المصير، والبشرية**

الضالة تلوي وتعاند، وتواجه الدعوة الخيرة بالعناد والتمرد، ثم بالطغيان والبطش، ويتولى الله سبحانه المعركة بعد أن يؤدي الرسل واجبهم من التذكير والإنذار، فيقابلوا من قومهم بالتكذيب والإعراض، ثم بالبطش والإيذاء، وبعد أن يفاصلوا قومهم على العقيدة، ويختاروا الله وحده ويدعوا له الأمر كله.
ويعرض السياق قصة نوح، وقصة هود، وقصة صالح، وقصة لوط، وقصة شعيب، مع أقوامهم، وهم يعرضون عليهم حقيقة واحدة لا تتبدل (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)، ويجادلهم قومهم في إفراد الله سبحانه بالألوهية، ويستنكرون أن تكون لله وحده الربوبية، كما يجادلونهم في إرسال الله بشراً من الناس بالرسالة، ويجادل بعضهم في أن يتعرض الدين لشؤون الحياة الدنيا، ويتحكم في التعاملات المالية والتجارية، وذلك كما يحاول اليوم ناس من الجاهلية الحاضرة في هذه القضية بعينها بعد عشرات القرون، ويسمون هذا الجدل الجاهلي القديم تحرراً "وتقدمية "، **ويعرض السياق مصارع المكذبين في نهاية كل قصة.**

ويظهر من هذا القصص **وضوح هذه العقيدة وحسمها في نفوس الرسل وأتباعهم، أو في روح النصح والرغبة في هداية قومهم، ثم في مفاصلتهم لأقوامهم عندما يتبين لهم عنادهم وإصرارهم الأخير، ثم في إدارة الله سبحانه للمعركة**، وأخذ المكذبين بعد مفاصلة رسلهم لهم، والانتهاء من إنذارهم وتذكيرهم، وعتو المكذبين وإصرارهم على ما هم فيه، وهنا يقف السياق وقفة للتعقيب، يبين فيها سنة الله في تعامل قدر الله مع الناس حين تجيئهم الرسالة فيكذبون، إذ يأخذهم أولا بالضراء والبأساء، لعل هذا يهز قلوبهم الغافية فتستيقظ وتستجيب، فإذا لم تهزهم يد البأس وكلهم إلى الرخاء، وهو أشد فتنة من البأس، حتى تلتبس عليهم سنة الله، ولا ينتبهوا لها، ثم يأخذهم بعد ذلك بغتة وهم لا يشعرون (94-102).

بعد ذلك يعرض السياق **قصة موسى مع فرعون وملئه، ومع قومه بني إسرائيل:** وتستغرق القصة أكبر مساحة استغرقتها في سورة قرآنية، وتعرض منها حلقات شتى، ويقف السياق عند بعض الحلقات للتعقيب، كما يقف في نهايتها لتعقيب طويل حتى نهاية السورة، وقد شملت **حلقة مواجهة فرعون بحقيقة العقيدة، وحلقة التحدي والسحرة** - وهما كثيرتا الورود في السور الأخرى - **وحلقة أخذ آل فرعون بالسنين والآفات** وإرسال الطوفان والجراد

والقمل والضفادع والدم - التي لم تفصل إلا في هذه السورة - **وحلقة إغراق فرعون والملأ من قومه**، ثم استمر السياق **مع بني إسرائيل وطلبهم من موسى أن يجعل لهم إلهاً** - صنما - كالقوم الذين مروا عليهم بعد نجاتهم من فرعون وتجاوزهم للبحر، **وحلقة ميقاته مع ربه وطلبه رؤيته ودك الجبل وصعقه وتنزيل الألواح عليه، وحلقة اتخاذ قومه للعجل في غيبته، وحلقة الميقات الثاني مع السبعين من قوم موسى وأخذ الصاعقة لهم حين قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، وحلقة عصيانهم في دخول القرية وفي صيد السمك يوم السبت، وحلقة نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة**، وكلها معروضة بتفصيل واسع، مما جعل القصة تستغرق حزباً كاملاً من السورة.
وفي موقف من مواقف القصة **يُدخل السياق الرسالة النبوية الأخيرة ويصف طبيعتها وحقيقتها**، وذلك عندما دعا موسى عليه السلام ربه في شأن من صعقوا من قومه، واستنزل رحمته سبحانه على هذا النحو الذي **يتداخل فيه القصص لتأدية غرض المعركة التي يخوضها القرآن** فعلاً: (واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون).
ثم تواصل القصة سيرها بعد هذه الوقفة إلى **موقف العهد ونتق الجبل وأخذ الميثاق**، وفي ظل مشهد الميثاق والعهد على بني إسرائيل يذكر **العهد المأخوذ على فطرة البشر أجمعين** (171-172)، ويمضي السياق يعرض بعد مشهد العهد الفطري مباشرة، **مشهد الذي آتاه الله آياته ثم انسلخ منها، كبني إسرائيل وككل من يؤتيه الله آياته ثم ينسلخ منها** (175-179).

ثم يمضي السياق يتحدث عن مسائل العقيدة حديثاً مباشراً، ويعرض مع الحديث بعض المؤثرات من المشاهد الكونية ومن التحذير من بأس الله وأخذه، ومن لمس قلوبهم ليتفكروا ويتدبروا في شأن الرسول ورسالته (180-186)، ثم يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم طبيعة الرسالة وحدود الرسول فيها، وذلك بمناسبة سؤالهم له عن تحديد موعد القيامة التي يخوفهم بها (187-188).

ثم يصور لهم كيف تنحرف النفس، التي أخذ الله عليها العهد الذي أسلفنا، عن التوحيد الذي أقرت به فطرتها، ويستنكر تصورات الشرك ومعبوداته، ويوجه رسوله صلى الله عليه وسلم في نهاية هذه الفقرة إلى تحديهم وتحدي آلهتهم العاجزة (قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تُنظرون . إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون).

ومن هنا إلى ختام السورة يتجه السياق إلى خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان افتتاحها خطاباً له :
كيف يعامل الناس،
كيف يمضي بهذه الدعوة،
كيف يستعين على متاعب الطريق،
كيف يكظم غضبه وهو يعاني من نفوس الناس وكيدهم،
كيف يستمع هو والمؤمنون معه لهذا القرآن،
كيف يذكر ربه ويبقى موصولا به، كما يذكره من عنده في الملأ الأعلى سبحانه (199-206).

مقدمة سورة الأنفال

مقدمة :

- سورة مدنية نزلت في غزوة بدر الكبرى.
- ومع كل عظمة هذه الغزوة، فإن قيمتها لا تتضح أبعادها الحقيقية إلا حين نعرف طبيعتها وحين نراها حلقة من حلقات "الجهاد في الإسلام"، وحين ندرك بواعث هذا الجهاد وأهدافه، كذلك نحن لا ندرك طبيعة "الجهاد في الإسلام" وبواعثه وأهدافه قبل أن نعرف طبيعة هذا الدين ذاته.
- ومن تلخيص ابن القيم لمراحل الجهاد في الإسلام في زاد المعاد: (... فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب، وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمر أن يعرض عنهم ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهي أن يصلي عليهم، وأن يقوم على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم، فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين).

- ## سمات المنهج الحركي في الإسلام :

أولا: الواقعية الجدية: فهو حركة تواجه واقعاً بشرياً، وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي، تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات، وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها.

ثانيا: الواقعية الحركية: فهو حركة ذات مراحل، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها، فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة، كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل

متجمدة، فإن منهج الإسلام هو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً، وتعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد، لا بقهرهم على اعتناق عقيدته، ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة.
ثالثا: القاعدة الثابتة: هذه الحركة الدائبة، والوسائل المتجددة، لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة، ولا عن أهدافه المرسومة، فالهدف هو إخلاص العبودية لله، والخروج من العبودية للعباد، لا مساومة في هذه القاعدة ولا لين.

رابعا: الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى، على أساس أن الإسلام لله هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه، أو أن تسالمه بجملتها، فلا تقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي، أو قوة مادية.

والمهزومون روحياً وعقلياً ممن يكتبون عن "الجهاد في الإسلام" ليدفعوا عن الإسلام هذا "الاتهام"، **يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة، وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه**، والتي تعبد الناس للناس، وتمنعهم من العبودية لله، وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما.
إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها: **الثورة الشاملة على حاكمية البشر** في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها، والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور.
ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم هم رجال الدين كما كان الأمر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة كما كان الحال في ما يعرف باسم "الثيوقراطية" أو الحكم الإلهي المقدس، ولكنها تقوم بأن **تكون شريعة الله هي الحاكمة، وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة.**
ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ الإسلام **شكل "الحركة" إلى جانب شكل "البيان"**، ذلك ليواجه "الواقع" البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه.

ولقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن **"الاتباع" في الشريعة والحكم هو "العبادة"** التي صار بها اليهود والنصارى "مشركين" مخالفين

لما أمروا به من "عبادة" الله وحده، ففي حديث الترمذي: ... وهو (أي النبي صلى الله عليه وسلم) يقرأ هذه الآية: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله)، قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: (بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم)، حسنه الألباني.

إن مدلول "الدين" أشمل من مدلول "العقيدة"، إن الدين هو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة وهو في الإسلام يعتمد على العقيدة، ولكنه في عمومه أشمل من العقيدة، وفي الإسلام يمكن أن تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام الذي يقوم على أساس العبودية لله وحده، ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الإسلام.

أما محاولة إيجاد **مبررات دفاعية للجهاد الإسلامي** بالمعنى الضيق للمفهوم العصري للحرب الدفاعية، ومحاولة البحث عن أسانيد لإثبات أن وقائع الجهاد الإسلامي كانت لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة على "الوطن الإسلامي"، وهو في عرف بعضهم جزيرة العرب، فهي محاولة تنم عن قلة إدراك لطبيعة هذا الدين، ولطبيعة الدور الذي جاء ليقوم به في الأرض، كما أنها تشي بالهزيمة أمام ضغط الواقع الحاضر، وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي.
ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم - قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة، أكانوا يقعدون إذن عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الأرض، وكيف كانوا يدفعون هذا المد، وأمام الدعوة تلك العقبات المادية، من أنظمة الدولة السياسية، وأنظمة المجتمع العنصرية والطبقية، والاقتصادية الناشئة من الاعتبارات العنصرية والطبقية، والتي تحميها القوة المادية للدولة كذلك؟
إن **الجهاد ضرورة للدعوة**، إذا كانت أهدافها هي إعلان تحرير الإنسان إعلاناً جاداً يواجه الواقع الفعلي بوسائل مكافئة له في كل جوانبه، والعبرة بنهاية المراحل التي وصلت إليها الحركة الجهادية في الإسلام، بأمر من الله، لا بأوائل أيام الدعوة ولا بأوسطها، ولقد انتهت هذه المراحل كما يقول الإمام ابن القيم: ... فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن (وهم أهل الذمة كما يفهم من الجملة السابقة)، وخائف محارب"، وهذه هي

المواقف المنطقية مع طبيعة هذا الدين وأهدافه، لا كما يفهم المهزومون أمام الواقع الحاضر، وأمام هجوم المستشرقين الماكر.

ولقد **كف الله المسلمين عن القتال في مكة** وقيل للمسلمين (كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)، ثم أذن لهم فيه فقيل لهم (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير)، ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقيل لهم (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم)، ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقيل لهم (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)، (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)، فكان القتال كما يقول الإمام ابن القيم **"محرماً ثم مأذوناً به ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ثم مأموراً به لجميع المشركين".**

إن **جدية النصوص القرآنية الواردة في الجهاد، وجدية الأحاديث النبوية التي تحض عليه، وجدية الوقائع الجهادية في صدر الإسلام،** وعلى مدى طويل من تاريخه، إن هذه الجدية الواضحة **تمنع أن يجول في النفس ذلك التفسير الذي يحاوله المهزومون** أمام ضغط الواقع الحاضر، وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي. (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً) وإذن فهو الشأن الدائم لا الحالة العارضة، الشأن الدائم أن لا يتعايش الحق والباطل في هذه الأرض.

إن **الكف عن القتال في مكة لم يكن إلا مجرد مرحلة في خطة طويلة،** (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)، **ومن الأسباب المحتملة لذلك** :

1- ربما كان ذلك لأن الفترة المكية **كانت فترة تربية وإعداد،** تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم، فيتجرد من ذاته، وتربيته كذلك على ضبط أعصابه، فلا يندفع لأول مؤثر كما هي طبيعته، وتربيته على أن يتبع مجتمعاً منظماً له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته.

2- وربما كان ذلك أيضاً لأن **الدعوة السلمية كانت أشد أثراً وأنفذ في مثل بيئة قريش** ذات العنجهية والشرف، والتي قد يدفعها القتال معها، في مثل هذه المرحلة، إلى زيادة العناد، وإلى نشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة.
3- وربما كان ذلك أيضاً **اجتناباً لإنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت،** فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم، إنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد.
4- وربما كان ذلك أيضاً لما يعلمه الله من **أن كثيرين من المعاندين** الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ويعذبونهم ويؤذونهم، هم بأنفسهم **سيكونون من جند الإسلام المخلص،** بل من قادته، ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء.
5- وربما كان ذلك أيضاً لأن **النخوة العربية في بيئة قبلية من عادتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى ولا يتراجع،** وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم (مثل نقض صحيفة بني هاشم).
6- وربما كان ذلك أيضاً، لقلة عدد المسلمين حينذاك، وانحصارهم في مكة، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة، ففي مثل هذه الحالة **قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة.**

فأما **في المدينة، في أول العهد بالهجرة، فقد كانت المعاهدة** التي عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود من أهلها ومن بقي على الشرك من العرب فيها وفيما حولها **ملابسة تقتضيها طبيعة المرحلة كذلك** :
أولاً: لأن هناك مجالاً للتبليغ والبيان لا تقف له سلطة سياسية تمنعه وتحول بين الناس وبينه، فقد اعترف الجميع بالدولة المسلمة الجديدة وبقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تصريف شؤونها السياسية،
ثانياً: أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد التفرغ في هذه المرحلة لقريش التي تقوم معارضتها لهذا الدين حجر عثرة في وجه القبائل الأخرى، الواقفة في حالة انتظار لما ينتهي إليه الأمر، فبادر بإرسال السرايا، وتوالت هذه السرايا على رأس تسعة أشهر ثم على رأس ثلاثة عشر شهراً ثم على رأس ستة عشر شهراً، ثم كانت سرية عبدالله بن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهراً، وهي أول غزاة وقع فيها قتل وقتال، وكان ذلك في الشهر الحرام، والتي نزلت فيها آيات البقرة (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ...).

ثم كانت **غزوة بدر الكبرى في رمضان** من هذه السنة، وإن الذين يلجأون إلى تلمس أسباب دفاعية بحتة لحركة المد الإسلامي، إنما يؤخذون بحركة الهجوم الاستشراقية، في وقت لم تعد للمسلمين شوكة بل لم يعد للمسلمين إسلام، إلا من عصم الله ممن يصرون على تحقيق إعلان الإسلام العام بتحرير "الإنسان" في "الأرض" من كل سلطان إلا سلطان الله، ليكون الدين كله لله، فيبحثون عن مبررات أدبية للجهاد في الإسلام، والمد الإسلامي ليس في حاجة إلى مبررات أدبية له أكثر من المبررات التي حملتها النصوص القرآنية (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) النساء:74 - 76، (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) الأنفال:38 – 40، (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) التوبة:29 – 32.

إنها مبررات تقرير ألوهية الله في الأرض، وتحقيق منهجه في حياة الناس، ومطاردة الشياطين ومناهج الشياطين، وتحطيم سلطان البشر الذي يتعبد الناس، والناس عبيد الله وحده، لا يجوز أن يحكمهم أحد من عباده بسلطان من عند نفسه، وبشريعة من هواه ورأيه، وهذا يكفي، مع تقرير مبدأ (لا إكراه في الدين)، أي لا إكراه على اعتناق العقيدة، بعد الخروج من سلطان العبيد، والإقرار بمبدأ أن السلطان كله لله، أو أن الدين كله لله، بهذا الاعتبار.
قال ربعي بن عامر، وحذيفة بن محصن، والمغيرة بن شعبة، جميعاً لرستم قائد جيش الفرس في القادسية (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه، فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر)، هكذا فهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالتهم.

إن المسلم قبل أن ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر في نفسه مع الشيطان، مع هواه وشهواته، مع مطامعه ورغباته، مع مصالحه ومصالح عشيرته وقومه، مع كل شارة غير شارة الإسلام، ومع كل دافع إلا العبودية لله، وتحقيق سلطانه في الأرض، وطرد سلطان الطواغيت المغتصبين لسلطان الله.

والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الإسلامي في حماية "الوطن الإسلامي" يغضون من شأن "المنهج" ويعتبرونه أقل من "الموطن"، وهذه ليست نظرة الإسلام إلى هذه الاعتبارات، إنها نظرة مستحدثة غريبة على الحس الإسلامي، **فالعقيدة والمنهج الذي تتمثل فيه، والمجتمع الذي يسود فيه هذا المنهج، هي الاعتبارات الوحيدة في الحس الإسلامي،** أما الأرض بذاتها فلا اعتبار لها ولا وزن، وكل قيمة للأرض في التصور الإسلامي إنما هي مستمدة من سيادة منهج الله وسلطانه فيها، وبهذا تكون محضن العقيدة وحقل المنهج و "دار الإسلام" ونقطة الانطلاق لتحرير "الإنسان".

حقاً إنه لم يكن بد لهذا الدين أن يدافع المهاجمين له، هذه ملابسة لا بد منها تولد مع ميلاد الإسلام ذاته، وهذه معركة مفروضة على الإسلام فرضاً، ولا خيار له في خوضها، وهذا صراع طبيعي بين وجودين لا يمكن التعايش بينهما طويلاً، ولكن هناك حقيقة أخرى أشد أصالة من هذه الحقيقة، وهي أن من طبيعة الوجود الإسلامي ذاته أن يتحرك إلى الأمام ابتداء، لإنقاذ "الإنسان" في "الأرض" من العبودية لغير الله، المسافة عند مفرق الطريق قد لا تبدو كبيرة، فهو في كلتا الحالتين سيدخل المعركة حتماً، ولكنها في نهاية الطريق تبدو هائلة شاسعة، تغير المشاعر والمفهومات الإسلامية تغييرا كبيرا، خطيرا.

إن من حق الإسلام أن يتحرك ابتداء، فالإسلام ليس نحلة قوم، ولا نظام وطن، ولكنه منهج إله، ونظام عالم، ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز من الأنظمة والأوضاع التي تغل من حرية "الإنسان" في الاختيار، وحسبه أنه لا يهاجم الأفراد ليكرههم على اعتناق عقيدته، إنما يهاجم الأنظمة والأوضاع ليحرر الأفراد من التأثيرات الفاسدة، المفسدة للفطرة، المقيدة لحرية الاختيار. وحيثما وجد التجمع الإسلامي، الذي يتمثل فيه المنهج الإلهي، فإن الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام، مع ترك مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان، فإذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد، فهذه مسألة خطة لا مسألة مبدأ، مسألة مقتضيات حركة لا مسألة مقررات عقيدة.

<u>أبو الأعلى المودودي</u> : لقد جرت عادة الإفرنج أن يعبروا عن كلمة "الجهاد" "بالحرب المقدسة " إذا أرادوا ترجمتها بلغاتهم، وقد فسروها تفسيراً منكراً،

أصبحت كلمة الجهاد عندهم عبارة عن شراسة الطبع والخلق والهمجية وسفك الدماء، والعجب كل العجب أن الذين عملوا على هذه الصورة، وقاموا بما كان لهم من حظ موفور في إبرازها وعرضها على الأنظار، هم هم الذين مضت عليهم قرون وأجيال يتقاتلون ويتناحرون فيما بينهم إرضاء لشهواتهم الدنيئة وإطفاء لأوار مطامعهم الأشعبية، وتلك هي حربهم الملعونة غير المقدسة، التي أثاروها على الأمم المستضعفة في مشارق الأرض ومغاربها، وجاسوا خلال ديارهم يبحثون عن أسواق لبضائعهم وأراض لمستعمراتهم التي يريدون أن يستعمروها، ويستبدوا بمنابع ثروتها دون أصحابها الشرعيين. هذه هي حال الذين يصموننا بالغزو والقتال، والذي سبق لنا من أعمال الفتوح والحروب قد مضت عليه أحقاب طويلة، أما أعمالهم المخزية هذه فلا يزالون يقترفونها ليل نهار بمرأى ومسمع من العالم "المتحضر المتمدن".

وقد بلغ من اغترارنا بتزويرهم، وانخداعنا بتلك الصورة المموهة، أن اعترانا الخجل والندامة، وعدنا نعتذر إلى القوم، نبدل كلام الله، ونحرف الكلم عن مواضعه، ونقول لهم: ما لنا وللقتال أيها السادة، إنما نحن دعاة مبشرون ندعو إلى دين الله، دين الأمن والسلام والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، نبلغ كلام الله تبليغ الرهبان والدراويش والصوفية، ونجادل من يعارضنا بالتي هي أحسن، بالخطب والرسائل والمقالات حتى يؤمن من يؤمن بدعوتنا عن بينة، هذه هي دعوتنا لا تزيد ولا تنقص، أما السيف والقتال به فمعاذ الله أن نمت إليه بصلة، اللهم إلا أن يقال إننا ربما دافعنا عن أنفسنا حينما اعتدى علينا أحد، أما المدافع والدبابات والرشاشات وغيرها من آلات الحرب واستخدامها، فأنتم أحق بها وأهلها.

إن **مرجع هذا الخطأ** إلى أمرين مهمين لم يسبروا غورهما، ولم يدركوا مغزاهما على وجه الحقيقة: **الأول: أنهم ظنوا الإسلام نحلة** بالمعنى الذي تطلق عليه كلمة النحلة عامة، **والثاني: أنهم حسبوا المسلمين أمة** بالمعنى الذي تستعمل فيه هذه الكلمة في عامة الأحوال، **فالنحلة** على حسب الاصطلاح الشائع عندهم لا يراد بها إلا مجموعة من العقائد والعبادات والشعائر (أي مسألة شخصية)، فالظاهر أنه لا شأن فيها للسيف وأدوات الحرب كما قالوا، وكذلك كلمة **الأمة**، فما هي إلا عبارة عن طائفة من الناس متوافقة فيما بينها، اجتمعت وتألفت وامتازت من بين طوائف أخرى لاشتراكها في بعض الأمور

الجوهرية، لا يبعثها على استخدام السيف إلا أمران، إما أن يعتدي عليها أحد ويريد أن يسلبها حقوقها المعروفة، وإما أن تحمل هي بنفسها على طائفة أخرى لتنتزع من يدها حقوقها المعروفة، فالأولى مقبولة والثانية مرفوضة، إلا عند الطغاة الجبابرة وما أكثرهم.
الحقيقة أن الإسلام ليس بنحلة كالنحل الرائجة، وأن المسلمين ليسو بأمة كأمم العالم، بل الأمر **أن الإسلام فكرة انقلابية، ومنهاج انقلابي، يريد أن يهدم نظام العالم الاجتماعي بأسره، ويأتي بنيانه من القواعد، ويؤسس بنيانه من جديد حسب فكرته ومنهاجه العملي، والجهاد عبارة عن الكفاح الانقلابي، عن تلك الحركة الدائبة المستمرة التي يقام بها للوصول إلى هذه الغاية، وإدراك هذا المبتغى.**
والإسلام يتجنب الكلمات الشائعة في دعوته وبيان منهجه العملي، بل يؤثر لذلك لغة من المصطلحات خاصة، لئلا يقع الالتباس بين دعوته وما إليها من الأفكار والتصورات، وبين الأفكار والتصورات الأخرى الشائعة الرائجة، **والجهاد** من الكلمات التي اصطلح عليها الإسلام لأداء مهمته وتبيين تفاصيل دعوته، بينما لفظة **الحرب** كانت ولا تزال تطلق على القتال الذي يشب لهيبه وتستعر ناره بين الرجال والأحزاب والشعوب لمآرب شخصية وأغراض ذاتية، فلم يكن بد من ترك لفظة الحرب تماما، فإن الإسلام لا ينظر إلى مصلحة أمة دون أمة، ولا يقصد إلى النهوض بشعب دون شعب، وكذلك لا يهمه في قليل ولا كثير أن تملك الأرض وتستولي عليها هذه المملكة أو تلك، وإنما تهمه سعادة البشر وفلاحهم، وله فكرة خاصة ومنهاج عملي مختار لسعادة المجتمع البشري والصعود به إلى معارج الفلاح.
والإسلام يتطلب "الأرض" ولا يقنع بقطعة أو جزء منها، وإنما يتطلب ويستدعي المعمورة الأرضية كلها، ولا يتطلبها لتستولي عليها وتستبد بمنابع ثروتها أمة بعينها بعد ما تنتزع من أمة أو أمم شتى، بل يتطلبها الإسلام ويستدعيها ليتمتع الجنس البشري بأجمعه بفكرة السعادة البشرية ومنهاجها العملي اللذين أكرمه الله بهما، وفضله بهما على سائر الأديان والشرائع.

فالجهاد كلمة جامعة تشتمل جميع أنواع السعي وبذل الجهد، وإذا عرفت هذا فلا تعجب إذا قلت إن تغيير وجهات أنظار الناس وتبديل ميولهم ونزعاتهم، وإحداث انقلاب عقلي وفكري بواسطة مرهفات الأقلام نوع من أنواع الجهاد، كما أن القضاء على نظم الحياة العتيقة الجائرة بحد السيوف، وتأسيس نظام

جديد على قواعد العدل والنصفة أيضاً من أصناف الجهاد، وكذلك بذل الأموال، وتحمل المشاق، ومكابدة الشدائد، أيضاً فصول وأبواب مهمة من كتاب "الجهاد" العظيم، والذي يتطلبه الإسلام أنه إذا قام رجل، أو جماعة من المسلمين، تبذل جهودها، وتستنفد مساعيها للقضاء على النظم البالية الباطلة، وتكوين نظام جديد حسب الفكرة الإسلامية، فعليها أن تكون مجردة عن كل غرض، مبرأة من كل هوى أو نزعة شخصية أو جاهاً وشرفاً أو سمعة وحسن أحدوثة (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت).

لا للخطاب الفئوي : إن الإسلام لا يخاطب الناس باسم العمال أو الفلاحين أو الملاكين أو المتمولين من أصحاب المعامل والمصانع، ولا يسميهم بأسماء أحزابهم وطبقاتهم، وإنما يخاطب الإسلام بني آدم كافة، ولا يناديهم كذلك إلا بصفة كونهم أفراد الجنس البشري، فهو يأمرهم أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً، ولا يتخذوا إلهاً ولا رباً غيره.
إن دعوة الإسلام إلى التوحيد، وعبادة الله الواحد، لم تكن قضية كلامية، أو عقيدة لاهوتية فحسب، شأن غيره من النحل والملل، بل الأمر أنها كانت **دعوة إلى انقلاب اجتماعي،** أرادت في أول ما أرادت أن تقطع دابر الذين تسنموا ذروة الألوهية، وهؤلاء تارة تسنموا قمة الألوهية جهراً وعلانية، وأرادوا أن يقهروا من حولهم من الناس على أن يذعنوا لأمرهم، وينقادوا لجبروتهم، مستندين إلى حقوقهم التي ورثوها عن آبائهم، أو استأثرت بها الطبقة التي ينتمون إليها، فقالوا (ما علمت لكم من إله غيري)، (وأنا ربكم الأعلى)، (أنا أحيي وأميت)، (من أشد منا قوة)، إلى غيرها من كلمات الاستكبار ودعاوى الألوهية التي تفوهوا بها، وتجاسروا عليها بغياً وعدواناً، وطورا استغلوا جهل الدهماء وسفههم، فاتخذوا من الأصنام والتماثيل والهياكل (والفلسفات والأفكار) آلهة، يدعون الناس ويريدونهم على أداء مظاهر العبودية أمام هذه التماثيل والهياكل والأفكار متوارين بأنفسهم من ورائها (وفي الجاهليات الحاضرة فإن شكل الأصنام والهياكل فقط هو الذي تغير)، ومن ثم ترى أنه كلما قام نبي من الأنبياء يجاهر الناس بالدعوة وخاطبهم قائلاً (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)، قامت في وجهه الحكومات المتمكنة في عصره، وثار عليه جميع من كانوا يستغلون خيرات البلاد ويستثمرونها ظلماً وعدواناً، خرجت تقاومه، وتضع في سبيل الدعوة العقبات، وذلك أن هذه الدعوة لم تكن

مجرد بيان لعقيدة كلامية، أو شرح لمسألة من مسائل الإلهيات، وإنما كانت نداء لانقلاب اجتماعي عالمي.
إن الإسلام ليس بمجرد مجموعة من العقيدة الكلامية، وجملة من المناسك والشعائر، كما يفهم من معنى الدين في هذه الأيام، بل الحق أنه نظام شامل، يريد أن يقضي على سائر النظم الباطلة الجائرة الجارية في العالم، ويقطع دابرها، ويستبدل بها نظاماً صالحاً، ودعوته في هذه السبيل، سبيل الإصلاح والتجديد والهدم والبناء، عامة للجنس البشري كافة، لا تختص بأمة دون أمة، أو طائفة دون طائفة، فهو يدعو بني آدم جميعاً إلى كلمته، حتى إنه يهيب بالطبقات الجائرة نفسها ممن اعتدوا حدود الله في أرضه، واستأثروا بخيرات الأرض دون سائر الناس، يهيب بالملوك والأمراء أنفسهم ويناديهم قائلاً: لا تطغوا في الأرض، وادخلوا في كنف حدود الله التي حدّها لكم، وكفوا أيديكم عما نهاكم الله عنه وحذركم إياه. فإن أسلمتم لأمر الله، ودنتم لنظام الحق والعدل الذي أقامه للناس خيرا وبركة، فلكم الأمن والدعة والسلامة، فإن الحق لا يعادي أحداً، وإنما يعادي الحق الجور والفساد والفحشاء، وأن يتعدى الرجل حدوده الفطرية، ويبتغي ما وراء ذلك، مما لا حظ له فيه حسب سنن الكون، وفطرة الله التي فطر الناس عليها.

فكل من آمن بهذه الدعوة وتقبلها بقبول حسن، يصير عضواً في "الجماعة الإسلامية " أو "الحزب الإسلامي" لا فرق في ذلك بين الأحمر منهم والأسود، أو بين الغني منهم والفقير، كلهم سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأمة على أمة، أو لطبقة على أخرى، وبذلك يتكون ذلك الحزب العالمي أو الأممي، الذي سمي **"حزب الله"** بلسان الوحي.
وما إن يتكون هذا الحزب حتى يبدأ بالجهاد في سبيل الغاية التي أنشئ لأجلها، فمن طبيعته، وما يستدعيه وجوده، أن لا يألو جهداً في القضاء على نظم الحكم التي أسس بنيانها على غير قواعد الإسلام، فإن لم يبذل هذا الحزب الجهد المستطاع، ولم يسع سعيه وراء تغيير نظم الحكم وإقامة نظام الحق، نظام الحكم المؤسس على قواعد الإسلام، ولم يجاهد حق جهاده في هذه السبيل، فاتته غايته، وقصر عن تحقيق البغية التي أنشئ لأجلها، فإنه ما أنشئ إلا لإدراك هذه الغاية، وتحقيق هذه البغية، بغية إقامة نظام الحق والعدل، **ولا غاية له ولا عمل إلا الجهاد في هذه السبيل وهذه الغاية الوحيدة** التي بينها الله تعالى في كتابه العزيز بقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف

وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)، (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

"ولا يظن أحد أن هذا الحزب (حزب الله) بلسان الوحي، مجرد جماعة من الوعاظ المبشرين، يعظون الناس في المساجد، ويدعونهم إلى مذاهبهم ومسالكهم بالخطب والمقالات ليس إلا، ليس الأمر كذلك، وإنما **هو حزب أنشأه الله ليحمل لواء الحق والعدل بيده، ويكون شهيداً على الناس،** ومن مهمته التي ألقيت على كاهله من أول يوم أن **يقضي على منابع الشر والعدوان، ويقطع دابر الجور والفساد في الأرض والاستغلال الممقوت، وأن يكبح جماح الآلهة الكاذبة،** الذين تكبروا في أرض الله بغير الحق، وجعلوا أنفسهم أربابا من دون الله، ويستأصل شأفة ألوهيتهم، ويقيم نظاما للحكم والعمران صالحا يتفيأ ظلاله القاصي والداني والغني والفقير. وإلى هذا المعنى أشار الله تعالى في غير واحدة من آي الذكر الحكيم (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)، (إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)، (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

إما تقليص الإسلام أو الانتماء لحزب الله لهدم الجاهلية : إن حزباً مؤمناً بمبدأ ونظام للحياة والحكم خاص، لا يمكن أن يعيش متمسكاً بمبدئه عاملاً حسب مقتضاه في ظل نظام للحكم مؤسس على مبادئ وغايات غير المبادئ والغايات التي يؤمن بها، ويريد السير على منهاجها. فإن رجلاً يؤمن بمبادئ الشيوعية، إن أراد أن يعيش في بريطانيا أو ألمانيا، متمسكاً بمبدئه، سائراً في حياته على البرنامج الذي تقرره الشيوعية، فلن يتمكن من ذلك أبداً، لأن النظم التي تقررها الرأسمالية أو الناتسية تكون مهيمنة عليه، قاهرة بما أوتيت من سلطان، فلا يمكنه أن يتخلص من براثنها أصلا، وكذلك إن أراد المسلم أن يقضي حياته مستظلاً بنظام للحكم مناقض لمبادئ الإسلام الخالدة وبوده أن يبقى مستمسكاً بمبادئ الإسلام، سائراً وفق مقتضاه في أعماله اليومية، فلن يتسنى له ذلك، ولا يمكنه أن ينجح في بغيته هذه أبداً، فالذي يؤمن بعقيدة ونظام - فرداً كان أو جماعة - مضطر بطبيعة عقيدته وإيمانه بها أن يسعى سعيه في القضاء على نظم الحكم القائمة على فكرة غير فكرته، ويبذل الجهد المستطاع في إقامة نظام للحكم مستند إلى الفكرة التي يؤمن بها، ويعتقد أن فيها سعادة للبشر، وإذا رأيت رجلا لا يسعى وراء غايته، أو يغفل عن هذا الواجب، فاعلم أنه كاذب في دعواه (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا

وتعلم الكاذبين . لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون)، لقد نص القرآن الكريم على أن **الذي لا يلبي نداء الجهاد، ولا يجاهد بماله ونفسه في سبيل إعلاء كلمة الله، وإقامة الدين الذي ارتضاه لنفسه، وتوطيد نظام الحكم المبني على قواعده، فهو في عداد الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون.**

لا مندوحة للمسلمين، أو أعضاء "الحزب الإسلامي" عن الشروع في مهمتهم بإحداث الانقلاب المنشود، والسعي وراء **تغيير نظم الحكم في بلادهم التي يسكنونها، أما غايتهم العليا وهدفهم الأسمى فهو الانقلاب العالمي الشامل** المحيط بجميع أنحاء الأرض، فإن الحق يأبى الحدود الجغرافية، ولا يرضى أن ينحصر في حدود ضيقة اخترعها علماء الجغرافية واصطلحوا عليها.
إن الحق ظله وارف، وخيره عام شامل، لا يختص ببيئة دون بيئة، ولا قطر دون قطر، فأينما وجد "الإنسان" مقهوراً فالحق من واجبه أن يدركه ويأخذ بحقه وينتصر له (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها).
العدو المحيط : زد على ذلك أنه ربما يتعذر أن تسير مملكة في قطر بعينه بحسب مبادئها وخططها المرسومة المستبينة، ما دامت الأقطار المجاورة لها لا توافقها على مبادئها وخطتها، ولا ترضى بالسير وفق منهاجها وبرنامجها، وبخاصة إذا كانت هذه المبادئ والخطط هي مبادئ الإسلام وخططه التي تنتزع السلطان من كل متسلط وترده إلى الله وحده، ومن ثم تتجمع جميع الأنظمة وجميع الحكومات وجميع المعسكرات التي تقوم على أساس عبودية البشر للبشر، القاعدة التي تشترك فيها جميع أنظمة البشر، لتواجه الإسلام وأهله.

فمن واجب الحزب الإسلامي أن يسعى، في جانب، وراء نشر الفكرة الإسلامية، وتعميم نظرياتها الكاملة ونشرها في أقصى الأرض وأدناها، وبجانب آخر، يشمر عن ساق الجد، ويقاوم النظم الجائرة المناقضة لقواعد الحق والعدل بالقوة، إذا استطاع ذلك وأعد له عدته، ويقيم مكانها نظام العدل والنصفة، المؤسس على قواعد الإسلام ومبادئه الخالدة التي لا تبلى، هذه هي

الخطة التي سلكها، وهذا هو المنهاج الذي انتهجه، النبي صلى الله عليه وسلم ومن جاء بعده، وسار بسيرته من الخلفاء الراشدين.
انتهت المقتطفات من كلام المودودي رحمه الله.

- ## غزوة بدر (يوم الفرقان)

كانت قريش هي الطاغوت المباشر الذي يحول بين الناس في الجزيرة وبين التوجه إلى عبادة الله وحده، والدخول في سلطانه وحده، فلم يكن بد أن يناجز الإسلام هذا الطاغوت، تمشياً مع خطته العامة، وانتصافاً في الوقت ذاته من الظلم والطغيان اللذين وقعا بالفعل على المسلمين الكرام، ووقاية كذلك لدار الإسلام في المدينة من الغزو والعدوان. إن طبيعة هذا الدين نفسه وخطته التي تحتمها طبيعته هذه هي ألا يترك في الأرض طاغوتاً يغتصب سلطان الله، ويعبد الناس لغير ألوهيته وشرعه بحال من الأحوال.

والنصوص القرآنية لا تدرك حق إدراكها بالتعامل مع مدلولاتها البيانية واللغوية فحسب، إنما تدرك أولاً وقبل كل شيء بالحياة في جوها التاريخي الحركي، وفي واقعيتها الإيجابية، وتعاملها مع الواقع الحي، وهي أبعد مدى وأبقى أثراً من الواقع التاريخي الذي جاءت تواجهه، ولن تتكشف أسرار هذا القرآن قط للقاعدين، الذين يعالجون نصوصه في ضوء مدلولاتها اللغوية والبيانية فحسب، وهم قاعدون.
لما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها، فانتدب الناس، فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حرباً.
وجملة من حضر بدراً من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً: من المهاجرين ستة وثمانون، ومن الأوس واحد وستون، ومن الخزرج مائة وسبعون، وإنما قل عدد الأوس عن الخزرج، وإن كانوا أشد منهم وأقوى شوكة وأصبر عند اللقاء، لأن منازلهم كانت في عوالي المدينة، وجاء النفير بغتة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضراً.
أصاب أبو سفيان خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم.

وخرجت قريش بالقيان والدفاف يغنين في كل منهل، وينحرون الجزر، وهم تسعمائة وخمسون مقاتلاً، وقادوا مائة فرس، عليها مائة دارع سوى دروع المشاة، وكانت إبلهم سبعمائة بعير، وهم كما ذكر الله تعالى عنهم (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس، ويصدون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيط).
فأصبح أبو سفيان ببدر وقد تقدم العير وهو خائف من الرصد، فضرب وجه عيره، فساحل بها، أي اتجه إلى ساحل البحر بعيداً عن طريق المدينة، وترك بدراً يساراً، وانطلق سريعاً، وأقبلت قريش من مكة ينزلون كل منهل، يطعمون الطعام من أتاهم وينحرون الجزر، وأتاهم قيس بن امرئ القيس من أبي سفيان يأمرهم بالرجوع، ويخبرهم أن قد نجت عيرهم .... فعالج قريشاً فأبت الرجوع، من الجحفة، وقال أبو جهل: لا والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيم ثلاثاً، ننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونشرب الخمر، وتعزف القيان علينا، فلن تزال العرب تهابنا أبداً.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه ، وكانت إبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ سبعين بعيراً فاعتقبوها، أي كانوا يركبونها بالتعاقب، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً.
ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان دون بدر أتاه الخبر بمسير قريش . فاستشار الناس، فقام أبو بكر، رضي الله عنه، فقال فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن .... فقام سعد بن معاذ، رضي الله عنه، فقال: أنا أجيب عن الأنصار، كأنك يا رسول الله تريدنا، قال: أجل، قال: إنك عسى أن تكون قد خرجت عن أمر قد أوحي إليك في غيره، يعني كما يبدو أنك ربما تكون قد خرجت لأمر ثم أوحي إليك في غيره إذ كان قد خرج للعير ثم عرض النفير، فإنا قد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به حق، فأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة، فامض يا نبي الله لما أردت، **فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل، وصل من شئت، واقطع من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت، والذي نفسي بيده ما سلكت هذا الطريق قط، وما لي بها من علم، وما نكره أن نلقى عدونا غداً، وإنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا بعض ما تقر به عيناك** . . وفي رواية أن

سعد بن معاذ قال: **إنا خلفنا من قومنا قوماً ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولا أطوع لك منهم، ولكن إنما ظنوا أنها العير**، نبني لك عريشاً فتكون فيه، ونعد عندك رواحلك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببناه، وإن تكن الأخرى جلست على رواحلك فلحقت من وراءنا، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم خيراً، وقال: أو يقضي الله خيراً من ذلك يا سعد.
فلما فرغ سعد من المشورة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سيروا على بركة الله، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم. فعلم القوم أنهم إنما يلاقون القتال وأن العير تفلت، ورجوا النصر لقول النبي صلى الله عليه وسلم.
واستشار أصحابه في المنزل، فقال الحباب بن المنذر بن الجموح: انطلق بنا إلى أدنى بئر إلى القوم، فإني عالم بها وبقلبها، بها قليب، أي بئر قديمة لا يعلم من حفرها، قد عرفت عذوبة مائه، وماء كثير لا ينزح، ثم نبني عليها حوضاً، ونقذف فيه الآنية فنشرب ونقاتل، ونعور ما سواها من القلب، فقال: يا حباب أشرت بالرأي. وفي رواية ابن هشام عن ابن إسحاق أن الحباب بن المنذر قال: يا رسول الله، هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة، قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، قال: يا رسول الله، هذا ليس بمنزل، ثم أشار بما أشار، ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل على القليب ببدر.
وبعث الله السماء، فأصاب المسلمين ما لبد الأرض ولم يمنع من السير، وأصاب قريشاً من ذلك ما لم يقدروا أن يرتحلوا منه.
ولما أقبلت قريش دعا النبي صلى الله عليه وسلم: **اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك، وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنِهم الغداة.**
تمت مبارزات بين أفراد من المؤمنين وآخرين من الكفار، ثم تزاحف الناس، ودنا بعضهم من بعض، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم، قال: إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل، ثم عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف ورجع إلى العريش، فدخله ومعه فيه أبو بكر ليس معه فيه غيره، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول فيما يقول: **اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد**، وأبو بكر يقول: يا نبي الله بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك.

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس فحرضهم وقال: والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة. فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة، وفي يده ثمرات يأكلهن: بخ بخ، كلمة تقال للإعجاب، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل رحمه الله تعالى.

عوف بن الحارث قال: **يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده، قال:"غمسه يده في العدو حاسراً"**، فنزع درعاً كانت عليه، فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل رحمه الله.

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً، ثم قال: "شاهت الوجوه" ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه فقال: "شدوا"، فكانت الهزيمة، فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم.

... فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم"، قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال.

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يومئذ: "إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرهاً"، قال: فقال أبو حذيفة ابن عتبة بن ربيعة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنه السيف .... فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة، فقتل يوم اليمامة في حروب الردة شهيداً.

عن عبدالرحمن ابن عوف رضي الله عنه قال: قال لي أمية بن خلف، وأنا بينه وبين ابنه، آخذ بأيديهما: يا عبد الإله، من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره، قال: قلت: حمزة بن عبدالمطلب، قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل .... فلما رآه (بلال) قال: رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا، قال: قلت: أي بلال، أبأسيري، قال: لا نجوت إن نجا ... قال: فهبروهما بأسيافهم حتى

فرغوا منهما ... فكان عبدالرحمن يقول: يرحم الله بلالاً، ذهبت أدراعي، وفجعني بأسيري.
ابن مسعود كان يقول: قال لي (أبو جهل): لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم، قال: ثم احتززت رأسه، ثم جئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبي جهل، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الله الذي لا إله غيره"، ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله.
أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لسعيد بن العاص: إني أراك كأن في نفسك شيئاً، أراك تظن أني قتلت أباك، **إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله،** ولكني قتلت خالي العاص بن هشام ابن المغيرة، فأما أبوك فإني مررت به، وهو يبحث بحث الثور بروقه (أي بقرنه) فحدت عنه، وقصد له بن عمه علي فقتله.
فلما ألقاهم في القليب، وقف عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً".
فقال: "يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء"، أو كما قال صلى الله عليه وسلم فقال: لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له، أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير، وقال له خيراً.

عن أبي أمامة الباهلي، قال سألت عبادة بن الصامت عن **الأنفال،** فقال **فينا أصحاب بدر نزلت، حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا،** فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن بواء، يقول: على السواء.
حين أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأسارى، فرقهم في أصحابه، وقال: **"استوصوا بالأسارى خيراً"** ..... فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصوني (أبو عزيز بن عمير) بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بنا .... فقال أبو عزيز: مر بي أخي مصعب بن عمير، ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شد يدك به، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه

منك، قال له أبو عزيز: يا أخي، هذه وصاتك بي، **فقال له مصعب: إنه أخي دونك**.

لقد اختلفوا على الغنائم القليلة في الوقعة التي جعلها الله فرقاناً في مجرى التاريخ البشري إلى يوم القيامة، **ولقد أراد الله سبحانه أن يعلمهم، وأن يعلم البشر كلهم من بعدهم أموراً عظاماً:**

1- أراد أن يعلمهم ابتداء أن أمر هذه الوقعة أكبر كثيراً من أمر الغنائم التي يختلفون عليها، فسمى يومها (يوم الفرقان يوم التقى الجمعان).
2- وأراد أن يعلمهم أن هذا الأمر العظيم إنما تم بتدبير الله وقدره، في كل خطوة، وفي كل حركة، ليقضي من ورائه أمراً أراده.
3- وأراد أن يريهم مدى الفرق بين ما أرادوه هم لأنفسهم من الظفر بالعير، وما أراده الله لهم، وللبشرية كلها من ورائهم من إفلات العير، ولقاء النفير.

لقد بدأت السورة بتسجيل سؤالهم عن الأنفال وبيان حكم الله فيها وردها إلى الله والرسول ودعوتهم إلى تقوى الله، وإصلاح ذات بينهم بعدما ساءت أخلاقهم في النفل، ثم جعل يذكرهم بأمرهم وتدبيرهم لأنفسهم وتدبير الله لهم، ومدى ما يرونه من واقع الأرض ومدى قدرة الله من ورائه ومن ورائهم، ثم ذكرهم بما أمدهم به من العون، وما يسره لهم من النصر، وما قدره لهم بفضله من الأجر (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم)، يمضي سياق السورة يسجل **أن المعركة بجملتها من صنع الله وتدبيره بقيادته وتوجيهه، بعونه ومدده، بفعله وقدره، له وفي سبيله** (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)، (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس)، (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل).
ولأن المعركة، كل معركة يخوضها المؤمنون، من صنع الله وتدبيره، بقيادته وتوجيهه، بعونه ومدده، بفعله وقدره، له وفي سبيله، **تتكرر الدعوة في السورة إلى الثبات فيها، والمضي معها، والاستعداد لها، والاطمئنان إلى تولي الله فيها، والحذر من المعوقات عنها من فتنة الأموال والأولاد،** والاستمساك بآدابها، وعدم الخروج لها بطراً ورئاء الناس، ويؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحريض المؤمنين عليها.

وفي ذات الوقت الذي تتكرر الأوامر بالتثبيت في المعركة، يتجه السياق إلى **توضيح معالم العقيدة وتعميقها**، ورد كل أمر وكل حكم وكل توجيه إليها، فلا تبقى الأوامر معلقة في الفراغ، إنما ترتكز على ذلك الأصل الواضح الثابت العميق:

ا- **في مسألة الأنفال يردون إلى تقوى الله**، والوجل عند ذكره، وتعلق الإيمان بطاعة الله وطاعة رسوله (قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين).

ب- **وفي خطة المعركة يردون إلى قدر الله وتدبيره**، وتصريفه لمراحلها جميعاً (ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا).

ج- **وفي أحداثها ونتائجها يردون إلى قيادة الله لها**، ومدده وعونه فيها (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم).

د- **وفي الأمر بالثبات فيها يردون إلى ما يريده الله لهم بها من حياة**، وإلى قدرته على الحيلولة بينهم وبين قلوبهم، وإلى تكفله بنصر من يتوكل عليه (ياأيها آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه)، (إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً).

ه- **وفي تحديد الهدف من وراء المعركة يقرر (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)**، (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون).

و- **وفي تنظيم العلاقات في المجتمع المسلم وبينه وبين غيره من المجتمعات الأخرى تبرز العقيدة قاعدة للتجمع وللتميز**، وتجعل القيم العقيدية هي التي تقدم في الصف أو تؤخر (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير . والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم).

ويبرز في سياق السورة بصفة خاصة، **إلى جانب خط العقيدة، خط آخر هو خط الجهاد، وبيان قيمته الإيمانية والحركية،** وتجريده كذلك من كل شائبة شخصية، وإعطاؤه مبرراته الذاتية العليا التي ينطلق بها المجاهدون في ثقة وطمأنينة واستعلاء إلى آخر الزمان (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)، (إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار)، (فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون)، (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)، (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال)، (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض)، (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً)، (ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة).

في هذه السورة طرف من منهج القرآن في تربية الجماعة المسلمة، وإعدادها لقيادة البشرية، وجانب من نظرة هذا الدين إلى حقيقة ما يجري في الأرض وفي حياة البشر، مما يقوم منه تصور صحيح لهذه الحقيقة : **لقد أراد الله للعصبة المسلمة غير ما أرادت لنفسها من الغنيمة،** أراد لها أن تنفلت منها القافلة وأن تلقى عدوها من عتاة قريش الذين جمدوا الدعوة في مكة، ومكروا مكرهم لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما بلغوا بأصحابه الذين تابعوه على الهدى غاية التعذيب والتنكيل والأذى، **ولقد أراد الله سبحانه أن تكون هذه الوقعة فرقاناً بين الحق والباطل،** وفرقاناً في خط سير التاريخ الإسلامي، ومن ثم فرقاناً في خط سير التاريخ الإنساني، وأراد أن يظهر فيها الآماد البعيدة بين تدبير البشر لأنفسهم فيما يحسبونه الخير لهم، وتدبير رب البشر لهم ولو كرهوه في أول الأمر، **كما أراد أن تتعلم العصبة المؤمنة عوامل النصر وعوامل الهزيمة،** وتتلقاها مباشرة من يد ربها ووليها، وهي في ميدان المعركة وأمام مشاهدها.

مقدمة سورة التوبة والقاعدة الصلبة

مقدمة

هذه السورة مدنية من أواخر ما نزل من القرآن، والسورة بجملتها نزلت في العام التاسع من الهجرة، ولكنها لم تنزل دفعة واحدة، **وقد تضمنت أحكاما نهائية في العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم في الأرض،** كما تضمنت تصنيف المجتمع المسلم ذاته، وتحديد قيمه ومقاماته، وأوضاع كل طائفة فيه وكل طبقة من طبقاته، ووصف واقع هذا المجتمع بجملته وواقع كل طائفة منه وصفا دقيقا مصورا مبينا.

والسورة ذات أهمية خاصة في بيان طبيعة المنهج الحركي للإسلام ومراحله وخطواته - حين تراجع الأحكام النهائية التي تضمنتها مع الأحكام المرحلية التي جاءت في السور قبلها - وهذه المراجعة تكشف عن مدى مرونة ذلك المنهج وعن مدى حسمه كذلك.

وبدون هذه المراجعة تختلط الصور والأحكام والقواعد، كما يقع كلما انتزعت الآيات التي تتضمن أحكاما مرحلية فجعلت نهائية، ثم أريد للآيات التي تتضمن الأحكام النهائية أن تفسر وتؤول لتطابق تلك الأحكام المرحلية، وبخاصة في موضوع الجهاد الإسلامي، وعلاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى.

المقطع الأول :

من أولها إلى ختام الآية الثامنة والعشرين، يتضمن تحديدا للعلاقات النهائية بين المعسكر الإسلامي والمشركين عامة في الجزيرة، مع إبراز الأسباب الواقعية والتاريخية والعقيدية التي يقوم عليها هذا التحديد:

(براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ...)،

(كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله)،

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون. قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم

وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين)،
(يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ...).

المقطع الثاني :

تضمن تحديدا للعلاقات النهائية كذلك بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب عامة، مع بيان الأسباب العقيدية والتاريخية والواقعية التي تحتم هذا التحديد، وتكشف كذلك عن طبيعة الإسلام وحقيقته المستقلة، وعن انحراف أهل الكتاب عن دين الله الصحيح عقيدة وسلوكا :
(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)،
(وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله)،
(يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)،
(يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ....).

المقطع الثالث :

يبدأ النعي على المتثاقلين الذين دعوا إلى التجهز للغزوة فتثاقلوا إلى الأرض وتكاسلوا عن النفير، وهؤلاء ليسوا كلهم من المنافقين، مما يشي بمشقة هذه الخطوة، وهذه الغزوة على النفوس في ذلك الحين :
(يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخره إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير . إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا

والله عزيز حكيم . انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون).
ظاهر من هذا كله ما كان في الموقف من مشقة ومن تخلف ومن قعود ومن تهيب ومن تردد.

المقطع الرابع :

وهو أطول مقاطع السورة، ويستغرق أكثر من نصفها، في فضح المنافقين وأفاعيلهم في المجتمع المسلم، ووصف أحوالهم النفسية والعملية، ومواقفهم في غزوة تبوك وقبلها وفي أثنائها وما تلاها، وكشف حقيقة نواياهم وحيلهم ومعاذيرهم في التخلف عن الجهاد وبث الضعف والفتنة والفرقة في الصف، وإيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلص من المؤمنين، ويتجلى من خلاله كيف عاد النفاق بعد فتح مكة فاستشرى بعد ما كاد أن يتلاشى من المجتمع المسلم قبيل الفتح، وننتقي بعض الآيات الدالة :
(لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون)،
(ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين).
(ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين)،
(ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون)،
(ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون)،
(ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن)،
(يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين)،
(يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم)،
(المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا االله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون)،
(يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير)،

(فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ...)،
(الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم . استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين)،
(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون).

وهذه الحملة الطويلة الكاشفة تشي بما كان للمنافقين في هذه الفترة من محاولات كثيرة لإيذاء الصف المسلم وفتنته وشغله بشتى الفتن والدسائس والأكاذيب عن وجهته، كما أنها في الوقت ذاته تكشف عن حالة من الخلخلة وعدم التناسق في التكوين العضوي للمجتمع الإسلامي في هذه الفترة، يشير إليها قول الله سبحانه (وفيكم سماعون لهم) كما يشير إليها النهي المشدد عن الاستغفار للمنافقين أو الصلاة عليهم .

المقطع الخامس :

هو الذي يتولى هذا التصنيف، ومنه نعلم أنه كان إلى جوار السابقين المخلصين من المهاجرين والأنصار، وهم الذين كانوا يؤلفون قاعدة المجتمع المسلم الصلبة القوية، جماعات أخرى، الأعراب وفيهم المخلصون والمنافقون، والذين لم تخالط قلوبهم بشاشة الإيمان، والمنافقون من أهل المدينة، وآخرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ولم يتم انطباعهم بالطابع الإسلامي ولم يصهروا في بوتقة الإسلام تماما، وطائفة مجهولة الحال لا تعرف حقيقة مصيرها متروك أمرها لله وفق ما يعلمه من حقيقة حالها ومآلها، ومتآمرون يتسترون باسم الدين.
(ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر)، (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول)، (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه)،

(وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم)،
(وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم . خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم)،
(وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم)،
(والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبدا).
وظاهر من تعدد الطوائف والطبقات والمستويات الإيمانية في المجتمع المسلم، كما تصفه هذه النصوص، مدى الخلخلة التي وجدت فيه بعد الفتح، مما كان المجتمع قد برئ منه أو كاد قبيل فتح مكة.

المقطع السادس :

يتضمن تقريرا لطبيعة البيعة الإسلامية مع الله على الجهاد في سبيله، وطبيعة هذا الجهاد وحدوده، وواجب أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب فيه، وأنه لا يحل لهم أن يتخلفوا عنه، وما كان لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، وضرورة المفاصلة مع المشركين والمنافقين، وفي ثنايا هذا المقطع يرد بيان لما قضى الله به في شأن بعض الذين تخلفوا عن الغزوة مخلصين غير منافقين، ووصف لبعض أحوال المنافقين وموقفهم تجاه ما يتنزل من القرآن الكريم، ويختم بامر الله لرسوله بالتوكل عليه.
(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم)،
(ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم)،
(لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت

عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم)،
(ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون)،
(يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة)،
(وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون).

القاعدة الصلبة

المهاجرون : لقد ولدت الحركة الإسلامية في مكة على محك الشدة، ولقد انتفض التجمع الجاهلي ليدفع عن نفسه الخطر الذي يتهدد وجوده بكل ما يدفع به الكائن العضوي خطر الموت عن نفسه، وهذا هو الشأن الطبيعي الذي لا مفر منه كلما قامت دعوة إلى ربوبية الله للعالمين في مجتمع جاهلي يقوم على أساس من ربوبية العباد للعباد.
وعندئذ تعرض كل فرد في التجمع الإسلامي الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها، إلى حد إهدار الدم في كثير من الأحيان، ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، والانضمام إلى التجمع الإسلامي الوليد، والدينونة لقيادته الجديدة، إلا كل من نذر نفسه لله، وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب والموت في أبشع الصور في بعض الأحيان.
بذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عوداً في المجتمع العربي، وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة.

الأنصار : وكذلك السابقون من الأنصار الذين وإن كانوا لم يصطلوها في أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون، إلا أن بيعة العقبة الثانية قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هذا الدين، فأصبحوا مع المهاجرين القاعدة الصلبة للمدينة.

(اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال " أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " قالوا فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك، قال " الجنة "، قالوا ربح البيع، ولا نقيل ولا نستقيل").
(قال:" تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة ").
يعلمون أنهم لا يبايعون على أمر هين، وأن العرب كلها سترميهم، وأنهم لن يعيشوا بعدها في سلام مع الجاهلية الضاربة الأطناب من حولهم في الجزيرة وبين ظهرانيهم في المدينة.

التفاوت : ولكن مجتمع المدينة لم يظل بهذا الخلوص والنقاء، لقد ظهر الإسلام وفشا في المدينة، واضطر أفراد كثيرون، ومعظمهم من ذوي المكانة في قومهم، أن يجاروا قومهم احتفاظا بمكانتهم فيهم، حتى إذا كانت وقعة بدر قال كبير هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول: هذا أمر قد توجه، وأظهر الإسلام نفاقا. ولا بد أن كثيرين قد جرفتهم الموجة فدخلوا في الإسلام تقليدا، ولو لم يكونوا منافقين، ولكنهم لم يكونوا بعد قد فقهوا في الإسلام، ولا انطبعوا بطابعه، مما أنشأ تخلخلا في بناء المجتمع المدني ناشئا عن اختلاف مستوياته الإيمانية.
وهنا أخذ المنهج القرآني التربوي الفريد، بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل عمله في هذه العناصر الجديدة، ويعمل كذلك على إعادة التناسق والتوافق بين المستويات العقيدية والخلقية والسلوكية، للعناصر المختلفة الداخلة في جسم المجتمع الوليد.
ومع هذا الجهد كله كانت ما تزال تظهر بين الحين والحين - وبخاصة في فترات الشدة - أعراض من الضعف، والنفاق والتردد، والشح بالنفس والمال، والتهيب من مواجهة المخاطر، وبصفة خاصة أعراض من عدم الوضوح العقيدي الذي يحسم في العلاقة بين المسلم وقرابته من أهل الجاهلية، وإن نظرة إلى نماذج قرآنية تبين لنا هذا :
(كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون)،
(فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله)،
(ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا)،

(وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا)
(وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي)،
(فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية)،
(ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل)،
(ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم)،
(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء)،
(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء).
إلا أن قوام المجتمع المسلم في المدينة كان يظل سليما في جملته بسبب اعتماده أساسا على تلك القاعدة الصلبة الخالصة من السابقين من المهاجرين والأنصار، وشيئا فشيئا كانت العناصر الضعيفة تنصهر وتتطهر وتتناسق مع القاعدة، ويقل عدد الناشزين من ضعاف القلوب ومن المنافقين، ومن المترددين كذلك والمتهيبين، وممن لم يتم في نفوسهم الوضوح العقيدي الذي يقيمون على أساسه كل علاقاتهم مع الآخرين، **حتى إذا كان قبيل فتح مكة كان المجتمع الإسلامي أقرب ما يكون إلى التناسق التام مع قاعدته الصلبة الخالصة**، وأقرب ما يكون بجملته إلى النموذج الذي يهدف إليه المنهج التربوي الرباني الفريد.
نعم إنه كانت في هذا المجتمع ما تزال هناك أقدار متفاوتة أنشأتها الحركة العقيدية ذاتها، فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها على قدر بلائها في الحركة وسبقها وثباتها، تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وتميز أهل بدر، وتميز أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية، ثم تميز بصفة عامة الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، وجاءت النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، والأوضاع العملية في المجتمع المسلم، تؤكد هذه الأقدار التي أنشأتها الحركة بالعقيدة وتنص عليها (راجع).

ولكن تميز هذه الطبقات بأقدارها الإيمانية التي أنشأتها الحركة الإسلامية، لم يكن مانعا أن تتقارب المستويات الإيمانية وتتناسق في مجتمع المدينة قبيل الفتح، وأن يتوارى الكثير من أعراض الخلخلة في الصف، والكثير من ظواهر الضعف والتردد، والشح بالنفس والمال، وعدم الوضوح العقيدي، والنفاق، من ذلك المجتمع بحيث يمكن اعتبار المجتمع المدني بجملته هو القاعدة الإسلامية الجديدة .

التفاوت مرة ثانية : إلا أن فتح مكة في العام الثامن الهجري، وما أعقبه من استسلام هوازن وثقيف في الطائف، وهما آخر قوتين كبيرتين بعد قريش في الجزيرة، قد عاد فصب في المجتمع المسلم أفواجا جديدة كثيرة دخلت في الدين مستسلمة على درجات متفاوتة من المستويات الإيمانية، وفيهم كارهون للإسلام منافقون، وفيهم المنساقون إلى الإسلام الظاهر القاهر، وفيهم المؤلفة قلوبهم، دون انطباع بحقائق الإسلام الجوهرية ولا امتزاج بروحه الحقيقية.
وكانت قبائل اليهود الثلاث القوية في المدينة قد خضدت شوكتها نهائيا فأجليت بنو قينقاع وبنو النضير إلى الشام، وأبيدت بنو قريظة، واستسلمت خيبر الاستسلام الأخير، كان ذلك إيذانا بدخول الناس في دين الله أفواجا، وانسياح الإسلام في أرجاء الجزيرة كلها في خلال عام واحد، **غير أن هذا الاتساع الأفقي في رقعة الإسلام قد أعاد معه جميع الأعراض والظواهر التي ظهرت في المجتمع بعد انتصار بدر - ولكن على نطاق أوسع - بعد ما كاد المجتمع يبرأ منها بتأثير التربية الطويلة المدى.**
ولولا أن المجتمع المدني بجملته كان قد تحول إلى أن يكون هو القاعدة الصلبة الخالصة لهذه العقيدة، والأساس الركين لهذا المجتمع، لكان هناك خطر كبير من هذا الاتساع الأفقي السريع في رقعة الإسلام في الجزيرة، ولكن الله الذي كان يدبر لهذا الأمر ويرعاه.

وأول ما ظهر من ذلك كان يوم حنين (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم).
وكذلك ما ظهر في أثناء غزوة تبوك من الأعراض والظواهر ...
وعندما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتدت الجزيرة العربية كلها، ولم يثبت إلا مجتمع المدينة، القاعدة الصلبة الخالصة، واستطاعت هذه القاعدة بصلابتها وخلوصها وتناسقها أن تقف في وجه التيار، وأن ترده عن مجراه الجارف، وأن تحوله إلى الإسلام مرة أخرى.
فندرك تدبير الله الحكيم في المحنة الطويلة التي تعرضت لها الدعوة في مكة، وحكمته في تسليط المشركين الطواغيت على الفئة المسلمة يؤذونها، ويفتنونها عن دينها، ويهدرون دماءها، ويفعلون بها الأفاعيل.
لقد كان الله سبحانه يعلم أن هذا هو المنهج القويم لتربية الجماعة الأولى وتكوين القاعدة الصلبة لهذه العقيدة. وأنه بدون هذه المحنة الطويلة لا تصلب

الأعواد ولا تثبت للضغوط، ويكشف لنا كل ذلك عن طبيعة المنهج الحركي للدعوة الإسلامية المتجددة في أي زمان وفي أي مكان :

إنه ابتداء يجب توجيه الحرص كله لإقامة القاعدة الصلبة من المؤمنين الخلص، الذين تصهرهم المحنة فيثبتون عليها، والعناية بتربيتهم تربية إيمانية عميقة تزيدهم صلابة وقوة ووعياً، ذلك مع الحذر الشديد من التوسع الأفقي قبل الاطمئنان إلى قيام هذه القاعدة الصلبة الخالصة الواعية المستنيرة.

ابن القيم (فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب، وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمر أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، ونهي أن يصلي عليهم، وأن يقوم على قبورهم).

سمات المنهج الحركي لهذا الدين :

السمة الأولى : هي الواقعية الجدية في منهج هذا الدين: فهو حركة تواجه واقعا بشريا، وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي، إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية، تقوم عليها أنظمة واقعية عملية، تسندها سلطات ذات قوة مادية، ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه...

والسمة الثانية : هي الواقعية الحركية: فهو حركة ذات مراحل، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية . وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها ، فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة ، كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة، (خلل سوق آيات الجهاد دون مراعاة للمرحلة والأحكام النهائية وقاعدة إزالة الطواغيت)

والسمة الثالثة : هي القاعدة الثابتة والوسائل المتجددة، فإن هذه الحركة الدائبة، والوسائل المتجددة، لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة، ولا عن أهدافه المرسومة، إنما يخاطبهم بقاعدة واحدة، ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف واحد هو إخلاص العبودية لله، والخروج من العبودية للعباد.

والسمة الرابعة : هي ذلك الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى، وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإسلام لله هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه،

أو أن تسالمه بجملتها فلا تقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي، أو قوة مادية.

إن تلك الأحكام المرحلية ليست منسوخة بحيث لا يجوز العمل بها في أي ظرف من ظروف الأمة المسلمة بعد نزول الأحكام الأخيرة، بل يمكن العمل بها كضرورة حال وواقع يفرض نفسه في فترة ضعف ما، شريطة إدراك أنها ضرورة مؤقتة، وأنه يجب العمل على إزالتها والعودة إلى الأحكام الأصلية لهذا الدين سواء في الجهاد أو غيره.

إنه حين تكون المذاهب التي يتبعها الناس مذاهب بشرية من صنع العبيد، وحين تكون الأنظمة والشرائع التي تصرف حياتهم من وضع العبيد أيضا، فإنه في هذه الحالة يصبح لكل مذهب ولكل نظام الحق في أن يعيش داخل حدوده آمنا، ما دام أنه لا يعتدي على حدود الآخرين، ويصبح من حق هذه المذاهب والأنظمة والأوضاع المختلفة أن تتعايش، وألا يحاول أحدها إزالة الآخر.

فأما حين يكون هناك منهج إلهي وشريعة ربانية، ووضع العبودية فيه لله وحده، وتكون إلى جانبه مناهج ومذاهب وأوضاع من صنع البشر العبودية فيها للعباد، فإن الأمر يختلف من أساسه، ويصبح من حق المنهج الإلهي أن يجتاز الحواجز البشرية، ويحرر البشر من العبودية للعباد، ويتركهم أحرارا في اختيار العقيدة التي يختارونها في ظل الدينونة لله وحده.

إن للجهاد المطلق في هذا الدين مبرراته النابعة من ذات المنهج الإلهي، فليراجعها المهزومون الذين يحملون هزيمتهم وضعفهم على هذا الدين، لعل الله أن يرزقهم القوة من عنده، وأن يجعل لهم الفرقان الذي وعد به عباده المتقين.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

مقدمة سورة هود

هذه السورة مكية بجملتها، ولقد نزلت السورة بجملتها بعد يونس، ونزلت يونس بعد الإسراء، وهذا يحدد معالم الفترة التي نزلت فيها، وهي من أحرج الفترات وأشقها كما قلنا في تاريخ الدعوة بمكة، فقد سبقها موت أبي طالب وخديجة، وجرأة المشركين على ما لم يكونوا ليجرؤوا عليه في حياة أبي طالب، وخاصة بعد حادث الإسراء وغرابته، واستهزاء المشركين به، وارتداد بعض من كانوا أسلموا قبله، مع وحشة رسول الله صلى الله عليه وسلم من خديجة رضي الله عنها، في الوقت الذي تجرأت فيه قريش عليه وعلى دعوته، وبلغت الحرب المعلنة عليه وعلى دعوته أقسى وأقصى مداها، وتجمدت حركة الدعوة حتى ما كاد يدخل في الإسلام أحد من مكة وما حولها، وذلك قبيل أن يفتح الله على رسوله وعلى القلة المسلمة معه ببيعة العقبة الأولى ثم الثانية.

وقد برز طابع هذه الفترة ومقتضياتها في السورة في سمات عدة نشير إلى بعض منها :

فمن ذلك استعراض السورة لحركة العقيدة الإسلامية في التاريخ البشري كله، من لدن نوح عليه السلام، إلى عهد محمد عليه الصلاة والسلام، وتقرير أنها **قامت على حقائق أساسية واحدة**: هي الدينونة لله وحده بلا شريك ، والعبودية له وحده بلا منازع، والتلقي في هذه الدينونة والعبودية عن رسل الله وحدهم على مدار التاريخ، مع الاعتقاد بأن الحياة الدنيا إنما هي دار ابتلاء لا دار جزاء، وأن الجزاء إنما يكون في الآخرة، وأن حرية الاختيار التي أعطاها الله للإنسان ليختار الهدى أو الضلال هي مناط هذا الابتلاء.

ولكن هذه لم تكن دعوة مبتدعة ولا قولا غير مسبوق، لقد قالها من قبل نوح وهود وصالح وشعيب وموسى وغيرهم، فكلهم إذن قال هذه الكلمة الواحدة ودعا بهذه الدعوة الثابتة.
ومن ذلك عرض مواقف الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، وهم يتلقون الإعراض والتكذيب، والسخرية والاستهزاء، والتهديد والإيذاء، بالصبر والثقة واليقين بما معهم من الحق، وفي نصر الله الذي لا شك آت، ثم تصديق العواقب في الدنيا، وفي الآخرة كذلك، لظن الرسل الكرام بوليهم القادر العظيم، بالتدمير على المكذبين، وبالنجاة للمؤمنين.
ومن ذلك التعقيب على هذا القصص بتوجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دلالته، والتسريةعنه بما أصاب إخوانه الكرام قبله، وبما أولاهم الله من رعايته ونصره، وتوجيهه صلى الله عليه وسلم إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما فاصل الرسل الكرام أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به، وذلك إلى التنويه بدلالة هذا القصص ذاته على صدق دعواه في الوحي والرسالة.
وفي نهاية القصص الوارد في السورة نجد هذا التعقيب الطويل إلى ختام السورة (100-102، 110-115، 120-123)، **وهكذا نرى القرآن يواجه واقع الدعوة والحركة في كل مرحلة بالتوجيه المكافيء للموقف،** وهكذا نجد القصص في القرآن يواجه مقتضيات الحركة والمعركة مع الجاهلية في مراحلها المختلفة مواجهة حية فاعلة، شأنه شأن بقية السورة التي يجيء فيها، ونجده في الوقت ذاته متناسقا مع سياق السورة وجوها وموضوعها، متوافيا مع أهدافها، مصدقا في عالم الواقع لما تقرره من توجيهات وأحكام وإيحاءات تقريرية.

وسورة هود شديدة الشبه بسورة الأعراف موضوعا وعرضا وإيقاعا ونبضا، ثم تبقى لكل سورة شخصيتها الخاصة، وملامحها المميزة، **وسورة هود القصص فيها هو جسم السورة،** وهو إن جاء شاهدا ومثالا لتصديق الحقائق الاعتقاديه التي تستهدفها، إلا أنه يبدو فيه أن استعراض حركة العقيدة الربانية في التاريخ البشري هو الهدف الواضح البارز، لذلك نجد تركيب السورة يحتوي على **ثلاثة قطاعات متميزة** :
القطاع الأول يتضمن حقائق العقيدة في مقدمة السورة ويشغل حيزا محدودا، **والقطاع الثاني** يتضمن حركة هذه الحقيقة في التاريخ ويشغل معظم سياق السورة،

والقطاع الثالث يتضمن التعقيب على هذه الحركة في حيز كذلك محدود.
وواضح أن قطاعات السورة بجملتها تتعاون وتتناسق في تقرير الحقائق الاعتقادية الأساسية التي يستهدفها سياق السورة كله، وأن كل قطاع منها يقرر هذه الحقائق وفق طبيعته وطريقة تناوله لهذه الحقائق، وهي تختلف بين التقرير والقصص والتوجيه، **وهذه الحقائق الأساسية التي تستهدف السورة تقريرها هي :**
أولا : أن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به الرسل من قبله حقيقة واحدة موحى بها من الله سبحانه، وهي تقوم على الدينونة لله وحده بلا شريك، والتلقي في هذه الدينونة عن رسل الله وحدهم كذلك، والمفاصلة بين الناس على أساس هذه الحقيقة، ففي مقدمة السورة تجيء الآيات عن حقيقة دعوة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وفي قصص الرسل ترد الآيات عن حقيقة دعوتهم، وعن المفاصلة بينهم وبين قومهم وأهلهم على أساس العقيدة، وفي التعقيب ترد الآيات عن حقيقة الدعوة وعن المفاصلة بين الناس على أساسها، وهكذا تلتقي قطاعات السورة الثلاثة على تقرير هذه الحقيقة.

ثانيا : ولكي يدين الناس لله وحده بالربوبية، فإن السورة تتولى تعريفهم به سبحانه، وتقرر كذلك أنهم في قبضته في هذه الدنيا، وأنهم راجعون إليه يوم القيامة ليجزيهم الجزاء الأخير، وتتوافى مقاطع السورة الثلاثة في تقرير هذه الحقيقة كذلك، في المقدمة يجيء (5-8، 15-16)، وفي قصص الرسل تجيء (56-57، 61)، وفي التعقيب يجيء (102، 111، 117-119)، وهكذا تتوافى قطاعات السورة الثلاثة كذلك على التعريف بحقيقة الألوهية وحقيقة الآخرة في سياقها، وهي لا تستهدف إثبات وجود الله سبحانه، إنما تستهدف تقرير ربوبية الله وحده في حياة البشر، كما أنها مقررة في نظام الكون، فقضية الألوهية لم تكن محل خلاف، إنما قضية الربوبية هي التي كانت تواجهها الرسالات، وهي التي كانت تواجهها الرسالة الأخيرة، إنها قضية الدينونة لله وحده بلا شريك، والخضوع لله وحده بلا منازع، ورد أمر الناس كلهم إلى سلطانه وقضائه وشريعته وأمره، كما هو واضح من هذه المقتطفات من قطاعات السورة جميعا.

وفي سبيل إنشاء تلك الحقائق الاعتقادية في الضمائر، وتثبيتها في النفوس، وتعميقها في الكيان البشري، وبث الحياة النابضة الدافعة فيها، بحيث تستحيل

قوة إيجابية موحية، مكيفة للمشاعر والتصورات والأعمال والحركات، في سبيل إنشاء تلك الحقائق على هذا النحو، وفي هذا المستوى، يحتوي سياق السورة على شتى المؤثرات الموحية والإيقاعات التي تلمس أوتار الكيان البشري كلها في عمق واستجاشة، وهو يعرض هذه الحقائق ويفصلها :

يحتوي الكثير من الترغيب والترهيب، الترغيب في خير الدنيا والآخرة لمن يستجيب لداعي الدينونة لله وحده بلا شريك، وما تحمله للبشرية من خير وصلاح ونماء، والترهيب بالحرمان من خير الدنيا أو الآخرة، وبالعذاب في الدنيا أو في الآخرة، لمن يعرضون عن هذا الداعي، ويسلكون طريق الطواغيت، حيث يسلمونهم في الآخرة إلى جهنم، التي يقودون لها أتباعهم في الآخرة جزاء ما استسلم لقيادتهم هؤلاء الأتباع في الدنيا، ورضوا بالدينونة لهم دون الدينونة لله تعالى، ومن نماذج الترهيب والترغيب (2-4، 15-16، 17-24، 52-57، 96-99).

ويحتوي السياق ذلك القصص الطويل الذي يصدق ذلك الترغيب والترهيب في حركة العقيدة على مدار التاريخ، من مصارع المكذبين ونجاة المؤمنين، على النحو الذي سبق في بعض المقتطفات، ويبرز مشهد الطوفان بصفة خاصة، ويبلغ نبض السورة أعلى مستواه في ثنايا هذا المشهد الكوني الفريد (36-44).

ويحتوي بعض صور النفس البشرية في مواجهة الأحداث الجارية بالنعماء والبأساء، فيرفع للمكذبين المستعجلين بالعذاب، المتحدين للنذر في استهتار، يرفع لهم صورأنفسهم وهم في مواجهة ما يستعجلون به حين يحل بهم، وفي الحسرات التي تصيب أنفسهم على تقلب الأحداث بهم، وفوت النعمة وإفلاتها من أيديهم، وفي البطر والغرور والانخداع بكشف الضر وفيض النعمة من جديد (8-11).

ويحتوي شيئا من مشاهد القيامة، وصور المكذبين فيها، ومواجهتهم لربهم الذي كذبوا بوحيه وتولوا عن رسله، وما يجدونه يومئذ من خزي، لا ينصرهم منه أرباب ولا شفعاء (18-22، 103-108).

ومن المؤثرات التي ترتجف لها القلوب ما يصوره السياق من حضور الله سبحانه واطلاعه على ما يخفي البشر من ذوات الصدور، بينما هم غارون لا يستشعرون حضوره سبحانه، ولا علمه المحيط، ولا يحسون قهره للخلائق

وإحاطته بها جميعا، وهم - الذين يكذبون - في قبضته كسائر الخلائق، من حيث لا يشعرون (4-6).
ومن المؤثرات الموحية في سياق السورة كذلك، **استعراض موكب الإيمان، بقيادة الرسل الكرام،** على مدار الزمان، وكل منهم يواجه الجاهلية الضالة بكلمة الحق الواحدة الحاسمة الجازمة، في صراحة وفي صرامة، وفي ثقة وطمأنينة ويقين، ومما لا شك فيه أن وحدة موقف الرسل الكرام، ووحدة الحقيقة التي يواجهون بها الجاهلية على مدار الزمان، ووحدة العبارات المحكية عنهم التي تتضمن هذه الحقيقة، يحمل في طياته ما يحمل من قوة وإيقاع وإيحاء.

مقدمة سورة يونس

الموضوع الرئيسي في سورة يونس هو ذات الموضوع العام للقرآن المكي الذي يعينه موضوعه الأساسي، وهو في اختصار: **حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية، وحقيقة العلاقات بينهما،** وتعريف الناس بربهم الحق الذي ينبغي أن يدينوا له ويعبدوه، ويتبعوا أمره وشرعه، وتنحية كل ما دخل على العقيدة الفطرية الصحيحة من غبش ودخل وانحراف والتواء، ورد الناس إلى إلههم الحق الذي يستحق الدينونة لربوبيته، كما يعينه أسلوب العرض لهذا الموضوع، وهو أسلوب موح، عميق الإيقاع، بالغ التأثير، حيث تشترك في أداء هذا الغرض كل خصائص التعبير، من البناء اللفظي، إلى المؤثرات الموضوعية.
ا- **إنها تواجه ابتداء موقف المشركين في مكة** من حقيقة الوحي إلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، ومن هذا القرآن ذاته بالتبعية، فتقرر لهم أن الوحي لا عجب فيه، وأن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله.
ب- **وتواجه طلبهم خارقة مادية،** غير القرآن، واستعجالهم بالوعيد الذي يسمعونه، فتقرر لهم أن آية هذا الدين هي هذا القرآن، وهو يحمل برهانه في تفرده المعجز الذي تتحداهم به، وأن الآيات في يد الله ومشيئته، وأن موعدهم بالجزاء يتعلق بأجل يقدّره اللّه، والنبي لا يملك شيئا فهو عبد من عباد الله، وفي هذا جانب من التعريف لهم بربهم الحق وحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية.

ج- **وتواجه اضطراب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية** - الأمر الذي يحدثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، فيكذبون بالوحي أو

يتشككون فيه، ويطلبون قرآناً غيره، أو يطلبون خارقة مادية تثبت لهم صحته - بينما هم سادرون في عبادة مالا يضرهم ولا ينفعهم من الشركاء، على اعتقاد أنهم شفعاؤهم عند الله، كما يزعمون لله الولد سبحانه بلا علم ولا بينة، فتقرر لهم صفات الإله الحق وآثار قدرته في الوجود من حولهم، وفي وجودهم هم أنفسهم، وفيما يتقلب بهم من ظواهر الكون، وما يتقلب بهم هم من أحوال وهتاف فطرتهم وأنفسهم بربها الحق عند مواجهة الخطر الذي لا دافع له إلا الله، وهذه هي القضية الكبرى التي تستغرق قطاعات شتى من السورة، والتي تتفرع عنها سائر محتوياتها الأخرى.

د- **وتصور لهم حضور الله سبحانه وشهوده لكل ما يهم به البشر، وكل ما يزاولون من نية وعمل،** مما يملأ الحس البشري بالرهبة والروعة، كما يملؤه بالحذر واليقظة، وذلك في مثل قوله تعالى في هذه السورة (وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن . ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه . وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين).

ه- **كذلك تملأ نفوسهم بالتوجس والتوقع لبأس الله في كل لحظة،** ليخرجوا من الغفلة التي ينشئها الرخاء والنعمة، ولا ينخدعوا بازدهار الحياة حولهم فيأمنوا بأس الله الذي يأتي بغتة (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام . حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس).

و- **وتواجه اطمئنانهم للحياة الدنيا ورضاهم بها عن الآخرة، وتكذيبهم بلقاء الله، بتحذيرهم من هذه الطمأنينة الخادعة،** ومن الخسارة في الصفقة الدون التي يرضونها، وتعريفهم بأن هذه الحياة الدينا إنما هي للابتلاء، وفي الآخرة الجزاء . . ثم تواجههم بعرض مشاهد متنوعة من مشاهد القيامة، وخاصة ما يتصل منها بتخلي الشركاء عن عبادهم، وتبرئهم منهم إلى اللّه، وتعذر الفداء من العذاب مهما كبر الفداء:(إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون)، (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم

إن كنا عن عبادتكم لغافلين . هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون).
ز- **ثم تواجه ما يترتب على اضطراب تصورهم للألوهية، وما يترتب على تكذيبهم بالبعث والآخرة، وما يترتب على تكذيبهم بالوحي والنذارة،** من انطلاقهم في واقع الحياة العملية يزاولون خصائص الربوبية في التشريع لحياتهم، والتحليل والتحريم في أرزاقهم ومعاملاتهم وفق ما تصوره لهم وثنيتهم واعتقادهم بالشركاء الذين يجعلون لهم نصيبا مما رزقهم الله، يأخذه السدنة والكهنة ليحلوا لهم ما يشاءون ويحرموا عليهم ما يشاءون، وهي القضية الكبرى التي تلي قضية الاعتقاد وتنبثق منها (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون).

والسورة تحتشد في إبلاغ تلك الحقائق التي تحتويها وتثبيتها وتعميقها واستجاشة القلوب والعقول لها بشتى المؤثرات الموحية، التي يحفل بها الأداء القرآني الفريد في الموضوع وفي التعبير عنه سواء:
ا- **تحتشد السورة بمشاهد هذا الكون وظواهره، الموحية للفطرة البشرية بحقيقة الألوهية،** الدالة على التدبير الحكيم، والقصد المرسوم في بناء هذا الكون وتصريفه، وفي الموافقات المبثوثة فيه لنشأة الحياةوالأحياء، ولحياة الكائن الإنساني وتلبية حاجاته في حياته . . وقضية الألوهية يعرضها القرآن في هذه الصورة الحية الواقعية الموحية، ولا يعرضها في أسلوب الجدل الفلسفي والمنطق الذهني، والله خالق هذا الكون وخالق هذا الإنسان يعلم - سبحانه - أن بين فطرة هذا الإنسان ومشاهد هذا الكون وأسراره لغة مفهومة ! وتجاوباً أعمق من منطق الذهن البارد الجاف، وأن هذه الفطرة يكفي أن توجه إلى مشاهد هذا الكون وأسراره.

ب- **وتحتشد بمشاهد الأحداث والتجارب التي يشهدونها بأعينهم ويعيشونها بأنفسهم،** ولكنهم يمرون بها غافلين عن دلالتها على التدبير والتقدير، والتصريف والتسيير، ويعرض السياق القرآني لهم مشاهد من واقعهم هم في استقبال تلك الأحداث والتجارب، كما ترفع المرآة للغافل عن نفسه فيرى فيها كيف هو على حقيقته.

ج- **وتحتشد بمصارع الغابرين من المكذبين،** آناً في صورة الخبر، وآنا في صورة قصص بعض الرسل، وتلتقي كلها عند عرض مشاهد التدمير على المكذبين، وتهديدهم بمثل هذا المصير الذي لقيه من قبلهم، فلا تغرنهم الحياة الدنيا.

د- **وتحتشد بمشاهد القيامة، تعرض عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين، عرضا حيا متحركا مؤثرا** عميق الإيقاع في القلوب، فتعرض مع مشاهد المصارع في الحياة الدنيا والتدمير على المجرمين ونجاة المؤمنين، صفحتي الحياة في الدارين، وبدء المطاف ونهايته حيث لا مهرب ولا فوت.

ه- ومن المؤثرات التي تحتشد بها السورة **تحدي المشركين المكذبين بالوحي، أن يأتوا بآية من مثل هذا القرآن،** ثم توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد دعوتهم وتحديهم، إلى تركهم ومصيرهم، وهو مصير المكذبين الظالمين من قبلهم، والمضي في طريقه المستقيم لا يحفلهم ولا يأبه لشأنهم، والتحدي ثم المفاصلة والاستعلاء على هذا النحو، مما يوقع في قلوبهم أن هذا النبي واثق من الحق الذي معه، واثق من ربه الذي يتولاه، وهذا بدوره يهز القلوب ويزلزل العناد.

وقد سميت السورة سورة يونس، بينما قصة يونس فيها لا تتجاوز إشارة سريعة على هذا النحو (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين)، ولكن قصة يونس، مع هذا، **هي المثل الوحيد البارز للقوم الذين يتداركون أنفسهم قبل مباغتة العذاب لهم، فيثوبون إلى ربهم وفي الوقت سعة،** وهم وحدهم في تاريخ الدعوات الذين آمنوا جملة بعد تكذيب، فكشف عنهم العذاب الذي أوعدهم به رسولهم قبل وقوعه بهم، كما هي سنة الله في المكذبين المصرّين.

إن القضية الأساسية التي يتكئ عليها السياق كله هي قضية الألوهية والعبودية، وتجلية حقيقتهما، وبيان مقتضيات هذه الحقيقة في حياة الناس، والواقع أن تلك القضية الكبرى هي قضية القرآن كله، وقضية القرآن المكي بصفة خاصة، فتعريف الألوهية الحقة، وبيان خصائصها من الربوبية والقوامة والحاكمية، وتعريف العبودية وحدودها التي لا تتعداها، والوصول من هذا كله إلى تعبيد الناس لإلههم الحق، واعترافهم بالربوبية والقوامة والحاكمية له وحده، هذا هو الموضوع الرئيسي للقرآن كله، وما وراءه إن هو إلا بيان لمقتضيات هذه الحقيقة الكبيرة في حياة البشر بكل جوانبها.

إن حياة البشر في الأرض لا تستقيم إلا إذا استقامت هذه الحقيقة في اعتقادهم وتصورهم، واستقامت كذلك في حياتهم وواقعهم :
لا تستقيم أولاً إزاء هذا الكون الذي يعيشون فيه، ويتعاملون مع أشيائه وأحيائه، وهم حين يضطرب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية يروحون يؤلهون الأشياء والأحياء، بل يؤلهون الأشباح والأوهام، ويُعبّدون أنفسهم لها في صور مضحكة، ولكنها بائسة، ويقدمون لها، بوحي من الكهان والمنتفعين بأوهام العوام في كل زمان وفي كل مكان، خلاصة كدهم من الرزق الذي أعطاهم اللّه، بل إنهم ليقدمون لها فلذات أكبادهم كما يقدمون لها أرواحهم في بعض الأحيان، وهي أشياء وأحياء لا حول لها ولا قوة، ولا تملك لهم ضراً ولا نفعاً، وتضطرب حياتهم كلها، وهم يعيشون بين الهلع والجزع من هذه الأشياء والأحياء، وبين التقرب والزلفى لمخلوقات مثلهم، عبوديتها للّه كعبوديتهم.
كذلك لا تستقيم حياة البشر إزاء بعضهم البعض بدون استقامة حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية في اعتقادهم وتصورهم، وفي حياتهم وواقعهم، والواقع البشري على مدار التاريخ يثبت هذه الحقيقة ويصدقها، فما من مرة انحرف الناس عن الدينونة لله وحده، اعتقاداً ونظاماً، ودانوا لغير الله من العباد، سواء كانت هذه الدينونة بالاعتقاد والشعائر أم كانت باتباع الأحكام والشرائع، إلا كانت العاقبة هي فقدانهم لإنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم.

والتفسير الإسلامي للتاريخ، يرد ذل المحكومين للطواغيت، وسيطرة الطواغيت عليهم، إلى عامل أساسي هو فسوق المحكومين عن دين اللّه، الذي يفرد الله سبحانه بالألوهية، ومن ثم يفرده بالربوبية والسلطان والقوامة والحاكمية (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين).

ولقد حدث أن الذين فسقوا عن الدينونة لله وحده، فأتاحوا لنفر منهم أن يحكموهم بغير شريعته، قد وقعوا في النهاية في شقوة العبودية لغيره، العبودية التي تأكل إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم، مهما اختلفت أشكال الأنظمة التي تحكمهم، والتي ظنوا في بعضها أنها تكفل لهم الإنسانية والحرية والكرامة.

إنه لا بد من عبودية، فإن لا تكن لله وحده، تكن لغير الله، والعبودية لله وحده تطلق الناس أحرارا كراما شرفاء أعلياء، والعبودية لغير الله تأكل

إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم، ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية.

الخاتمة

وبعد،
أيها الأخوة والأخوات إننا نعيش هذه الأيام في فتن متلاحقة، اختلط فيها بعض الحق بالكثير من الباطل، فارتبكت الأفهام، وتاهت أهداف الإسلام عند الكثير، فأنكر إسلاميون الخلافة، وأنكر آخرون منهم الجهاد، وخنع وخضع آخرون لأصنام الديموقراطية والليبرالية وغيرها، واتخذ آخرون المؤمنين أعداء دون الكفار المحاربين، فكفروهم وقتلوهم، ووالى آخرون الطواغيت، وتأولوا تأويلات ما أنزل الله بها من سلطان، وقالوا أنهم أهدى من الذين آمنوا سبيلا، وسقطت رموز من العلماء والدعاة في هذا المستنقع، وأصبح لزاما على الجميع المشاركة في الاستدراك الشرعي والفكري والحركي قدر الاستطاعة، وهذا الكتاب وغيره محاولات استدراكية لإعادة الأمور إلى نصابها، وبيان مواطن الخلل، والعمل على إعادة البناء من جديد على أصوله القديمة الصحيحة الواعية، والله المستعان.

فمن قرأ الكتاب فأعجبه، فإني أرجو دعاءه لي بظهر الغيب، ومن وجد نقصا او تقصيرا أو خللا، فأرجو أن يسدي لي بنصحه، لعلي استدرك في هذا الكتاب وغيره إن شاء الله.

أسأل الله أن يتقبل هذا العمل، وان يجعله خالصا لوجهه، وأن يغفر لي أي تقصير أو زلل، وأن يأخذ بأيدينا جميعا إليه أخذ الكرام عليه، وأن يختم لنا بخاتمة الشهادة في سبيله، اللهم آمين.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين،
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.
هشام صقر \ماليزيا \ 2020.

الفهرس